روايات الهلال

علاء الديب



89

أيام وردية

العدد ٦٣٧ - يناير ٢٠٠٢ - شوال ١٤٢٢هـ

روايات الهلال

سلسلة شهرية للنشر القصص العالمى
تصدر عن مؤسسة دار الهلال

الاصدار الأول
يناير ١٩٤٩

●

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ١,٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا - البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبى / أبو ظبي ١٥ درهما - سلطنة عمان ١,٥ ريال - المغرب ٣٥ درهما - فلسطين ٢,٥ دولار - سويسرا ٥ فرنكات .

عنوان البريد الإلكتروني :
dachilal@idsd. gow. eg

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها داخل ج٠ م٠ ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٥ دولارا - أمريكا وأوربا وآسيا وأفريقيا ٥٠ دولارا - باقى دول العالم ٦٠ دولارا

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

للاشتراك فى الكويت :
السيد عبدالعال بسيونى زغلول الصفا ص. ب. ٢١٨٣٣ (13079) ت : ٤٧٤١١٦٤

الادارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات : ص. ب : ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا المصور - القاهرة ج٠ م٠ ع٠

تلكس :
Telex 92703 hilal u n

فاكس :
FAX 3625469

أيام وردية

بقلم

علاء الديب



دار الهلال

الغلاف والرسوم الداخلية
للفنان
إيهاب شــاكر

في هذه الأيام ، لم يكن أمين الألفي يعشق إلا شجرة سنديان فريدة ، تقف وحدها خارج البلد قوية جميلة موجودة حقا ، تتحمل تسلق فروع «الجهنمية» الملونة عليها وتتباهى بها .

يعشقها فعلا عشقا ليس كعشق الشجر ، هكذا قال أمين الألفي لنفسه ، وهو خارج في تمشية ليلية وحده «بالشبشب» والبيجامة ، متمنيا ألا يرى أحدا ، وألا يضطر لتبادل الحديث .

هذا هو الطريق الوحيد الذي يخرج به بعيدا عن الوسط ، يقوده إلى المدخل الترابي ، على جانبي الطريق عربات قديمة وآلات غريبة الشكل ، يغطيها تراب كثيف ، كذلك الذي يحاول أن يتخلص منه على وجهه وعلى صدره ، وعلى الجانب الآخر أشجار صبار وأشجار أخرى ميتة فقدت ملامحها مما حل عليها من محن .

سيخرج بعد قليل من عنق الزجاجة ، ويجد نفسه بعيدا هناك عند الشجرة .

خطواته أسرع وأوسع من المعتاد ، يعد حتى عشرة ، ثم يعود يعد من جديد ، لا يصدق أنه أسير هذا الزمان وهذا المكان ، وأنه لا حيلة له ولا مهرب .

ذلك العشق الذى يشعر له بدبيب فى عروقه ، هو ما يبقيه حيا .. يعد عشرة بعد عشرة ، رغم كل الأسى والضيق الذى يشعر به ، وملايين الأشياء التى لا يقبلها والتى لا يرضاها ، والتى يتجرعها ... يعد .

«لو أعد أيام حياتى مع الخطوات لوصلت الهند .. ٥٤ سنة و٤ أشهر و٨ أيام ، خطوة ، خطوة ولا شئ فى يدى ، ولا تحقيق .. العشق الكامن هو الذى يبقينى حيا .

أمين الألفى أخصائى اجتماعى تعليم الدقهلية ، المنصورة الثانوية ، مفكر عربى قديم ، مصلح اجتماعى سابق ، مترجم وكاتب لكنه - أساسا - مفكر عربى وحيد ، كثير الأقنعة ، بعد طول ازدواج وظلم صار فقط لحظات مفتتة وماضيا يتوارى من نفسه ، ملاحا قديما رابضا على الشاطئ مهزوما فى الليل وفى النهار .

صنع لنفسه هذا القناع الذى يخرج به من الظلام ، لا يرى نفسه الحقيقية أحد ، لزوجته شادن عنده قناع خاص ، بكى على صدرها مرات ، صدور قليلة تلك التى استطاع أن يضع رأسه عليها للإغفاء أو للبكاء أو حتى لمجرد السكون ، صدور قليلة جدا ، وهو الذى

يعتبر نفسه عارفا بالنساء .

أما بسمة وبهجت ، ولداه . يرى فى عيونهما عشقا عميقا يبعث فى بواره بعض الحياة ، عشر خطوات أخرى ويجد نفسه هناك ، عشقه الآن يسرى فى عروقه، تملك عليه الشجرة نفسه ، قائمة هناك وحدها فى انتظاره ، تلمع فى حياته دوائر ضوء فضية ، يجد نفسه فيها ، ثم تنحسر وتبتعد ، وتتركه يقبض بيديه جيدا على هواء ، يسند أمين الألفى بيده على ساق الشجرة الخشن المتين .

عندما اختارت الشجرة هذا المكان لكى تقف فيه وترتفع ، هل كانت تعرف أنها ستتطلع أمامها إلى حياة أمين الألفى كاملة ؟ هو لا يرى سوى ليل ودخان وأضواء مدينة بعيدة ، هى العالية ربما ترى شيئا آخر، هل هى مثله أسيرة الموقع والزمان ؟ هل تعرف هى الجواب ؟

كان منظر أمين الألفى بالشبشب والبيجامة مستندا على السنديانة الضخمة فريدا فى الكون كله الآن ، لابد أن هناك شبكة جديدة تولد فى مكان ما تجمع بين الناس والأشياء فى عدل واتساق أكثر ، لا يمكن أن يظل هكذا يحمل كل هذا الضيق وحده فى الليل قرب الحقول .

السير فى طريق العودة كان محبطا ومهينا ، حتى التراب والأحمال فوق صدره .. راجع بها ، سيمر على

أجزاخانة الدكتور ظريف ليأخذ حباته الثلاث ثم يشق بعد ذلك طريقه إلى كهف الزوجية السعيد .

**

الدكتور ظريف جالس وحده هو الآخر . استند بكرسيه مائلا على جدار مدخل الأجزاخانة وتمدد فى بلادة ، الشارع خال بعد أن أغلقت باقى الدكاكين .

يراقب البعوض يموت عند النور الصاعق . هو مسيحى أربعينى ، عازب متصلب الرأى ودءوب . يدافع خلف دكانه عن حياته وموقعه . تجارته تتقدم ببطء قاتل . السفن التى يجهزها للإبحار ، راكنة لا تريد أن تبحر ، الحياة لا تريد أن تتغير .

ضاحكا قام مرحبا بزبون آخر الليل . بينهما ما هو أكثر من زبون وحبوب . جلسا طويلا على نفس الرصيف . أخرج ظريف له كرسيا ، أمسك به أمين الألفى ولم يجلس . وقف ينتظر فى صمت حباته الثلاث دون أن يقول شيئا .

آخر ما يريده الآن هو ذلك الحديث المكرر الثقيل عن القرف من البلد ، وعن الموظفين صراصير المحافظة ، ومشاكل الرصف والكهرباء وذلك الدفاع الضارى عن مواقع مهزومة أصلا .

سيأخذ حباته ويرحل .

سرعان ما يغير أمين الألفى رأيه . بعد أن اندفع ظريف يتكلم عن كل هذه المسائل مجتمعة ، استند هو

على زجاج داخل الأجزاخانة وتركه يعيد إدارة الشريط .

فيلم ممل بايخ . لا يمكن أن يكون فى هذه الأجزاخانة المتربة البائسة شئ جديد .

قال أمين الألفى وهو يراقب ملامح الدكتور التى تتغير كل لحظة : ليس لدى هذا الدكتور شئ من مؤهلات النجاح المعاصر . مؤهلاته أقل من مؤهلاتى شخصيا ، بدلا من العشق عندى، فى حياته دأب نملة، هو لا يغامر بالقفز فوق أصغر قناة .

أليس غريبا أن يسقط الناس فى الأماكن الملائمة لهم ، سيدير ظريف شريط حياته هذا هنا إلى الأبد .

أمسك أمين الألفى جبهته العريضة بيده وضغط .

قال ظريف : إسكين ؟!

رفع يده مودعا : «لا» وانصرف .

قال لنفسه : أهرب من الناس ، وأهرب من نفسى أكثر. إلى متى ؟

**

عندما يخبو العشق فى العروق تصبح الحياة مستحيلة ، ترنم أمين الألفى حزينا :

الحياة العشق والعشق الحياة ، لابد أن تشتعل عشقا حتى تشم رائحة الوجود ، دون ذلك تسقط معهم ، مع الملايين التى تعيش وتموت دون أن تعشق أو تحب ، الملايين التى تفعل طوال حياتها ما لا تحب ، وأبدا لا

تستطيع أن تدرك ما تحب .

منذ متى وأنت لم تشتعل عشقا ، هل مازلت تذكر «ف ..» بعد الحب ، تضع يدها على جبهتك وتقرب من عينيك عينيها وتقول : ألا تعرف يا حبيبى أنك مركز الكون ؟ كل الأشياء بدونك لا معنى لها ! هل كنت تصدقها ؟

هل من الممكن أن تسمع هذه الكلمات مرة أخرى ؟ فتتأكد من صدق نبرة الصوت ، وترى النبع الذى خرجت منه الكلمات.

«ف ..» صارت هى والكلمات والنبع ، قطع قماش قديم فى صندوق عتيق الرائحة ، تذكر رغم كل تلك الأيام ، شعورك النفسى والجسدى الفريد .. وتذكر لون الأفق .

ماذا يمكن أن تفعل فى روحك تلك الحبات الثلاث ، المقوى والمهدئ والمنشط تركيبة السعادة الرخيصة التى اخترعتها أنت والدكتور ظريف ، جريا وراء الحلول الوسط ، وهربا من أسعار الدواء الفلكية ، رضينا بالهم وهو لم يرض ، الحبوب الملونة فقدت مفعولها ، يلقى بها يوميا فى جب سحيق .

ربما كؤوس البراندى الرخيص التى أدمنها هى التى تفسد كل شئ ، كثيرا ما يشعر أمين الألفى بعدها أنه يدخل فى ظلام دامس .

كانت خطته أن يموت موتة عبقرية عندما يبلغ

الخامسة والثلاثين بعد أن يكون قد حقق فى حياته أعمالا فذة . كأن يعمل مثلا صيادا فى نهر النيل ، وأن يتزوج امرأته الحلم «فـ..» وتحول هى القارب إلى بيت ، وأن ينجبا أولادا وبنات، وأن يبيع من السمك البلطى فى القرى وأن يوزع على الفلاحين مع الأسماك رقعا مكتوبا عليها أشعار وحكم وأغنيات، وأن يعود إلى القارب فيجد طعاما مطبوخا ، وملابس منشورة ملونة. يكتب تحت النجوم على ارتجافات موج النهر عشقه للوجود .

كم مرت ثقيلة وسقيمة كل تلك الأيام ، بعد أن فسدت الخطة ، وخرج كل شئ من يده .

أعلن تغير صوت شبشبه البلاستيك أنه دخل إلى الممر الترابى الذى يسبق عمارتهم .

وقف يستجمع نفسه ، ويتأكد من مكان الحبوب فى جيب البيجامة .

★★

خطواته ثقيلة متباطئة وهو يصعد درجات سلم عمارتهم الضيقة .. بالتأكيد سيجد فى الصالة زوجته «مس شادن البيلى» مدرسة اللغة الإنجليزية أم الأولاد وقد هجعت فى آخر نهارها قبالة التليفزيون .

قالت دون أن ترفع رأسها ، إنه لن يكف عن أفعاله هذه حتى يتسبب لها وللأولاد فى فضيحة .

أكثر شئ يغيظ شادن الآن هو أن ينزل بالبيجامة

والشيشب ، لذلك فهو يفعل ذلك كل يوم مستمتعا بالانقلاب الذى يحدثه فى عقلها ودمها .

لم يرد ، توجه فى تصميم إلى محارته الحميمة ، أعز مخترعاته العملية وأقربها إلى قلبه ، إلى «البلكونة» الصغيرة التى أغلقها بالخشب والزجاج الخشن ، فصارت عشه الوحيد ، والسنتيمترات التى يملكها . يستطيع فيها أن يغلق على نفسه بابا ويتنفس .

اطمأن فقط على أن الأولاد قد ناموا ، وأنهم لم يسمعوا بصقة المساء المكررة هذه . وأن فى الثلاجة زجاجة ماء بارد.

قبل أن يدخل ، ترك ماء كثيرا يغسل قدميه على بلاط الحمام .

★ ★

أخيرا فى مقعده ابتلع حباته الثلاث ، حوله هنا كل ممتلكاته الإنسانية ، كتب قليلة يعرف بعضها ، أشرطة كاسيت قديمة وجديدة ، أوراق . مجلات قديمة . فى مخزن صغير زجاجة براندى بها بعض كؤوس . قطع مخدرات من بقايا الأصدقاء ، صور لناس قديمة ، يقلب فيها أحيانا ثم يعيدها إلى ظروفها البيضاء .

فى أركان البلكونة وتحت سقفها المائل الخانق القريب ، ساعات ممتدة من الوحدة ، وأطنان من أثقال وهموم ، قال الحزين صلاح عبدالصبور – وهو

أيضا يقول : «إنى انهزمت ولم أصب من وسعها إلا الجدار» .

أصاب أمين الألفى أكثر قليلا من الجدار . الساعات التى يمضيها هنا وحده يستحضر عشقه . يحاول أن يبعث فيه الحياة، أو يراود كتابة قصة أو مقال . يحاول صياغة رفضه فى كتابة لا يقرأها أحد .

أحيانا يكون راضيا بهذا ، ويحمد الله عليه كثيرا .

يقول لنفسه هناك ملايين من البشر تقطع وتوضع فى علب كل دقيقة ، هو لم يتحول - بعد - إلى سمكة منزوعة الرأس والزعانف وموضوعة فى علبة سردين .

ضم المقعد عظام أمين الألفى الكبيرة ، التى كانت تصنع له - زمان - قامة طويلة مؤثرة ، بانت تحت الضوء ملامح وجهه الكريمة التى مازالت تحمل آثار وسامة. عيناه كانتا هائمتين متسعتين فيهما أحزان وأشجان كثيرة ، عموما كأنك قد رأيته من قبل وتعرفه .

أمين الألفى يشعر بأن عصورا كثيرة قد مرت عليه ، يسميها أحيانا مراحل. ما يندم عليه هو العصر الذى كان الناس فيه يتكلمون مع بعض ، عندما كانت هناك «لغة» رصد هو اللغة وهى تنقرض وتندثر ، بداية من يونيو ٦٧ ، عندما حلت عليه وعلى البلد قصمة الظهر الكبرى . من يومها وأمين الألفى جالس بين رفوف

خالية لدكان بقال قديم .

عندما انسحب من مواقعه فى القاهرة وجاء إلى المنصورة ، كان يريد أن يعيش مرحلة جديدة . ساعده أصحاب العلاقات من بقايا معارفه فى الحصول على هذه الوظيفة فى التربية والتعليم ، اخترع لنفسه هو الاختصاصات والنظام ، فقد كان على أية حال قادما من العاصمة ، وقادرا على إقناع كبار صغار الموظفين بما يقترحه أو يراه . هو وزوجته «مس شادن» يدرسان فى مدرستين متجاورتين . هى تدرس الإنجليزية وهو اخصائى اجتماعى ومراقب للنشاط الذى لا وجود له . متفرغ تقريبا ، لا يفعل شيئا ، ولكنه صاحب كلمة وتأثير فى البلاهة البيروقراطية التى تدور من حوله فى كل مكان ، وفى الاتصال ببعض من لهم كلمة فى الوزارة .

أهم ما حدث أنه لم يعد يشتاق إلى القاهرة . لم يعد يطيق الإقامة فيها على الإطلاق ، إذا ذهب يعود فى نفس الليلة .

★ ★

يعزى أمين الألفى نفسه فيقول إنه مادام قادرا على استحضار عشقه والحلم به والسير وراءه حتى فى الخيال ، فإن الحياة تستحق أن تعاش ، ولها رغم كل شئ مذاق .

الحياة تبدأ بعد الأربعين ، هو فى العشرين إذن .

يستطيع أن يبدأ من جديد ، هو ليس بغلا من بغال الحكومة. لن يقبل تنفيذ حكم الإعدام فيه .

الحصار الذى فرض على شادن حتى أخذوها وضاعت منه ، هو الجرح الجديد والموضوع الذى يشغل فكره وروحه . تمت محاصرتها منذ عامين بقيادة «أبله الحاجة زينب» وعدد من المدرسات المحجبات والمنقبات ، حتى ابتعدت زوجته عنه تماما .

خاض من أجل الإبقاء عليها أهوالا ، ودخل فى خطط طويلة ومؤلمة . دخل فى نقاشات عقيمة ، داس فى أحلام مجهضة ، وأفكار مرتبكة ، ومزايدات مزيفة. الكلام أو النقاش صار بعد الأيام الأولى مكررا مرهقا بشكل لا يطاق .

يراقب رفضها له وهو يتصاعد ، فيختلط عنده الغضب بالإشفاق باليأس من كل شئ .

يراقب كيف تبنى بينهما هذه الجدران والسدود . توغلت فى أركان شقته كتب عذاب القبر بما فيها من ثعابين ومرذبات حديد مشتعلة ، ومخاوف أبدية لها رائحة شواء البشر . أخذوا زوجته التى كان يجدها فى الفراش ، وأمام أطباق الإفطار وأكواب الشاى ويلامس وقت الضيق شعرها ووجهها فى محبة وحنان ساعات الغروب .

المحاولة التى ترهقه وتصيبه باليأس ، هى محاولته لأن يحمى بسمة وبهجت من الآثار المدمرة للصراع

الدائر بينه وبين أمهما ، ذابت كل المعانى والقيم التى ظن أنه أقام عليها علاقته بشادن والأولاد ، ليس حوله من يكلمه فى الموضوع ، أو يأخذ رأيه ، الجميع حوله يرى أن ما يحدث أمر طبيعى ، بل هو مرغوب فيه ومطلوب .. وأنه هو الحل .

متروكا هكذا وحده ، مع لسعة كؤوس الخمر الرديئة ، وسواد الصداع الذى تسببه . استطرد مدخننا ما شاء له من سجائر ، نزلت عليه قبل أن يغفو شظايا لامعة من ذكرياته مع المرأة الحلم التى أحبها قديما «ف..» .

كل شئ فى جسدينا مستعد للحب ، درجة الضوء مشجعة على كل الحماقات ، خدر الشمس الغاربة يسرى فى غرفتهما الطويلة العالية المفتوحة مباشرة على النيل . همست فى أذنه «فى الليل سننام يا حبيبى ، عاريين ملتصقين حتى الصباح ، خذ يمينى وسادة لك» .



يحاول أمين الألفى كل يوم أن ينزل من بيته فى الصباح متأخرا قدر المستطاع ، حتى لا يجد نفسه فى قلب عاصفة الصباح اليومية التى يخلقها تدافع الأطفال والشباب ، تلاميذ وتلميذات المدارس وقد اندفعوا من كل الاتجاهات فى موجات لا تنتهى .

الطريق إلى المدرسة يمر بكل الطبقات الإنسانية والمعمارية التى تراكمت فوق قلب المدينة .. يمشى فى الوسط حيث الأحياء القديمة بشوارعها الطيبة المنتظمة ، ثم يخترق الأبراج القديمة والحديثة والتى تحت الإنشاء ، جاثمة على قلب المدينة وقلبه . رموز حية للملايين المتوحشة التى تجرى فى مجاريها بعيدا عنه وعن الناس . بعدها مباشرة يخترق عشوائيات متنوعة تخترقها أزقة رائحتها لا تطاق .

الدروس الخائبة التى يعطيها لنفسه كل يوم عن حال البلد والمجتمع والناس ، تصلح للعرض فى متاحف للأفكار الهزلية ، أو أناشيد للمغني الفذ فؤاد الاسكندرانى .

المدرسة بناء عجيب يلخص كل ما فات ، فى الوسط فيلا عريقة ، لها واجهة من الزجاج والخشب ، عالية السقف حيث يقع – والحمد لله – مكتبه ومكاتب الكبار ، أما باقى الفصول فقد تناثرت فى أعداد متنامية لا متناهية ، تؤرخ لاختلاف سياسات وزراء التعليم وتنوعهم . عشوائيات نوافذها مفتوحة ليل نهار وتراب كثيف يغطي العملية التعليمية كلها .

للمكتب الذى يجلس فيه متفرغا لعمل لا شئ نافذة. هنا يتلقى كل الأهوال والمساخر ، يحملها إليه المعارف والزملاء والتلاميذ .

يراقب تمثيليات رديئة ، تجرى على أوراق رسمية قادمة من الوزارة أو مرسلة إليها ، فيها وقائع وأرقام لا علاقة لها بهذا الواقع الصاخب الوحشي . ينتهى عند العصر ليتجدد كل صباح .

يسارية أمين الألفى القديمة تعاوده كأنها الحمى . فيتصور أنه كان من الممكن حل كل هذا . كان من الممكن أن تكون الأحوال أحسن بمئات المرات لو وجد أناس حقيقيون يطبقون الاشتراكية ويعيدون بناء البلد. لم يفهم أبدا لماذا انتصر الانتهازيون والضباع فى كل مكان . لماذا انزوى كل وجه نبيل وكل قيمة شريفة ؟ أخذت هذه المدرسة من عمره وأيامه الكثير . دخلها وهو مازال يملك طريقا خاصا للتفكير ، معتمدا على يقينين أو ثلاثة . يملك حماسا للقبض على حقيقة أو

اثنتين .. وها هو الآن يراقب القنابل الموقوتة ، وليس عنده ما يقول .

كان أمين الألفى فى أول أيامه فى المدرسة يشعر برغبة غير معقولة للانتقام من كل ما ومن تسبب فى قصمة الظهر فى ٦٧ . كان يريد أن يلقن الجميع درسا .

اشتغل كثيرا مع التلاميذ ، وعمل ملفات للفقراء وللحالات الاجتماعية والمرضية والنفسية . عمل دفاتر لرصد الاختيارات، وكتب الأسماء ، ورفع الأوراق ، وحصل على بعض الاعتمادات وسطر الأوراق بأقلام ملونة . وها هو كل شئ وراءه ، الدفاتر والأوراق فى الدولاب يغطيها التراب . شاهد على أن لا شئ يحدث.. لا شئ يتغير .

لم تعد حتى الجرائد تشغله . بعد أن استقر على شطآن اللاجدوى ، صار لا يقرأ فيها إلا الحوادث البشعة أو الطريفة ، الحوادث التى يعض فيها إنسان كلبا .

أما مقالات الرأى وجرائد المعارضة فقد توقف عن متابعتها عندما صار الجميع يتحدثون بصوت واحد ويختلفون فى الحليات والتفانين .

مرت بأمين الألفى هنا فترة يعتبرها - كما يقول المثقفون - «قمة الدراما» بعدها يكون كل شئ تافها متهافتا لا ضرورة له . هى الشهور القليلة التى نظم

فيها محاضرات وندوات فى المدرسة عن فلسطين . اشترك معه عدد كبير من التلاميذ وحضر المحاضرات مئات من المدرسة ومن خارجها ، عيونهم كانت جادة ونظيفة ، تبرق كلماتهم بحماس نادر وتطلع ، ينعش وجوده كلام الأولاد وحماسهم .

يحاول باستمرار أن ينسى نهاية التجربة كأنها لم تحدث تلك المواجهة اللا معقولة بينه وبين ضابط المباحث بحضور الناظر ، والتى أكد له الضابط فيها أن هذا النشاط خطر وغير مرغوب فيه .

حاول أن ينسى الغضب الحارق المحبط الذى سكن عروقه وتأكد له أنهم يكذبون ، وأن أحدا لا يريد أن يفعل شيئا ، صار يسخر من نفسه لأنه لم يكن يعرف هذا من قبل ، وأنه مضغ العلقم كل هذه السنوات . كانت «فلسطين» فى عقل أمين الألفى فى هذه الأيام وقبلها وبعدها : رمزا ، فكرة مسيطرة يقيس بها مواقع الناس ، «عاملا مساعدا» يكشف به الصدق من الكذب .

هو قد خلع نفسه من السياسة ، أو هى التى خلعته ولكن بقيت فلسطين السليبة معنى يسافر وراءه ، واسما يبحث عنه فى دواوين الشعراء ، وكلمات الصادقين . كوى بها جراح يونيو ، وعيش الفقراء حوله والمطحونين ، ولا طاب جرح ولا نفع دواء . سمع أحد المدرسين يشير إليه ساخرا «بتاع فلسطين» .

صارت ساعات المدرسة تمر ثقيلة ، عندما كف الأولاد أن يأتوا إليه ، ويئس هو من أن يذهب إليهم . انحشر معه فى المكتب أربعة من الأساتذة الأجلاء ، الذين يديرون «أبعديات» للدروس الخصوصية ، وينشغلون فى شئون مادية تجعلهم ينسون حتى أسماءهم .

يقول أمين الألفى لنفسه : سعيد فى هذه الأيام من يعثر على شئ يشغله ويستغرقه إلى هذا الحد ، فلا يشعر بما يجرى حوله .. سعيد .. وغليظ الجلد جدا . الدرس المكرر : تفرغ فقط لنفسك .

★★

عرف أمين الألفى ظروف ضيق مادى خانقة لكنه لم يعاقر الفقر المزمن ، ولم يذق طعم بكاء طفل بلا طعام . لذلك عندما عرف «مفتاح» الذى له من العمر اثنتا عشرة سنة ، ولكنه من الفقر يبدو فى السابعة ، حطت على كتفيه أثقال الوجود كلها وانقصم ظهره مرة أخرى .

كان «مفتاح» كائنا دقيقا وجميلا يشع بالذكاء ، وكل الطيبة الممكنة لطفل فى سنه وظروفه .. متفوقا جدا وفقيرا جدا ، علاقته معقدة ومركبة مع أغلب الأساتذة وكثير من التلاميذ .

تشابك أمين الألفى مع تلميذه مفتاح إلى آخر درجة. استطاع أن يدبر له كل ما أمكنه من دعم

ومساعدة غير جارحة . كثيرا ما أخذه ليسير معه فى نوبات المشى التى كانت تجتاحه .

أصغر إخوته الأربعة دقيق الملامح ، نظيف . أبوه نوبى ، عامل فى السكة الحديد ، أمه امرأة سمراء نظيفة (تعمل أحيانا فى بعض البيوت) مفتاح يعبدها عبادة . تطلع أمين الألفى من خلال مشاعر مفتاح وكلماته إلى واقع نادر لا يعرفه ، لا يوجد إلا فى الروايات العظيمة حيث العواطف النبيلة التى لا يتم التعبير عنها ، والأعمال العسيرة الشاقة التى تؤدى فى صمت ، وكان مفتاح مصدرا لفرح حقيقى ، صادفه أمين الألفى فى وسط الغروب ، إنه وهو البرجوازى المتعفن - كما كان يقول الرفاق قديما - يستطيع أن يتخلص من الشعور بالانفصال والذنب ، أو كما يقولون أيضا «أن يعاود الاحتكاك مع واقع متغير» .

استطاع أن يدبر عملا لمفتاح .. قارئا للأستاذ مندور الذى كف بصره . كان الأستاذ القديم أكثر من سعيد بذكاء الولد وتفوقه . وكان مفتاح يشتعل عشقا للمعرفة وللآفاق الجديدة التى تفتحها له الجرائد والمجلات والكتب التى يقرأ فيها للأستاذ مندور .

عندما كان أمين الألفى يبدو سعيدا فرحا بمفتاح كانت زوجته مس شادن البيلى تقول إنه هكذا دائما خيره واهتمامه دائما للخارج .

صار يصحب مفتاح - إذا لم يكن يقرأ للأستاذ مندور

فى زيارته - إلى شجرة السنديان خارج البلد . هناك كان الحديث والصمت بينهما مترعا بصفاء فريد .

رتل مفتاح يوما عليه ، بيت الشعر الذى علمه له الأستاذ مندور ، كان يكرر البيت فى فخر ونبرة عربية سليمة .

فلا هطلت بأرضى أو سمائى
سحائب ليس تنتظم البلادا

كانت مشاعر مفتاح تغلبه وهو يشرح فى سعادة المشاعر التى يبعثها بيت الشعر فى نفسه . كان يقول أبو العلاء كان أعمى هكذا قال الأستاذ مندور .. هل يرى العميان أحسن منا .

سأله مفتاح مرة - بلا مناسبة - : كم تستغرق الرحلة من هنا إلى فلسطين على الطريق السريع ؟

★★

أبلة الحاجة زينب هى التى قادت الحصار ، الذى أخذ من أمين الألفى زوجته شادن البيلى ، بعد زواج دام سنوات وسنوات : «الحاجة» امرأة من نوع غريب لم يعرفه فى حياته . امرأة كاملة التسليح ، فى الحجم والجمال والذهب . كتاب الله ، وحجابها الأنيق وذكاؤها الخارق جعلت لها فى المدينة نفوذا بالغا .

أحيانا تأتى بكل هذا «الهيلمان» لكى تزوره فى مكتبه بالمدرسة . فى البداية كان يخشى هذه الزيارات ولكنه وجدها ممتعة ، فصار ينتظرها ويتمناها ..

يمضى ساعة حقيقية حية وسط مستنقع الأيام المكررة هذا .

يتبارزان عن بعد . وتهدده ببؤس العاقبة وسوء المآل . كل سنواتها بعد أن عادت من الخليج كرستها لإعلاء كلمة الله وهداية عباده وفعل الخير . عرفها أمين الألفى قبل الإعارة ، وقبل الحجاب ، وكان شعرها أحد مفاتنها .

مرت العلاقة بينه وبين أبلة الحاجة زينب - أو زيزى كما كان يناديها وهما وحدهما - مرت العلاقة بمراحل وأزمات واختناقات . ولكنها كانت دائما تنتصر عليه وتتحداه بما تقوله وبما تخفيه . كان الصراع علي شادن ضاريا . هى تحسمه دائما منتصرة مؤكدة أن شادن امرأة عاقلة مستقيمة ، وأنه هو المعوج التائه .

ذكاؤها وحضورها الإنسانى الخصب كأنهما هالة جميلة لها. فيصبح من الممكن أن ينتقلا فى الحديث بسرعة إلى المشاركة فى شئ قديم له لديهما معزة خاصة . عابرين بسرعة فوق الحوادث والوقائع ولجاجة الواقع المزيف والكلام المكرور .

تقول له وهما يراقبان الحوش الضيق وقد امتلأ عن آخره بالتلاميذ يتحركون ويصخبون ويتشاجرون كأنهم قنابل قابلة للانفجار . تتأملهم وتقول فى كلماتها الخاطفة الخاصة المليئة بالحرارة : لا حل إلا تعاليم الإسلام والاستقامة . أرى الهداية صعبة وضرورية ،

محظوظ من يصادفها . أنت تريد أن تقعد ملوما محسورا .

وقع عليها زوجها في صفقة سريعة صاحبت إجراءات الإعارة . هناك انجبا - بفضل الله - رجلين. في آخر سنوات التعليم الآن. صنعا معا ثروة وعقارا . قاما معا بالحج مرات . وفعلا معا كثيرا من أعمال الخير ، وأعمال الشر التي تجبرك عليها الحياة العصرية. وأخيرا .. أضاف زوجها فضلا إلى أفضاله فرحل مبكرا . عام وبضعة شهور ، بعد العودة وانتهاء الإعارة . رقد أياما ورحل . ومن ماله أكرمته وأكرمه الله بمدفن فاخر تزوره هي بانتظام .

زيارة أبلة الحاجة زينب دائما زيارة وتجارة ، هي دائما مشغولة متعددة المقاصد ، فعلى الرغم من أنها تؤكد له أنها لا توافق على «أبعديات» الدروس الخصوصية التي أقامها الزملاء الأجلاء ، فهي تأتي - أيضا - لكي تتحدث معهم في صفقات ومصالح متبادلة. مع كل واحد منهم لها أسلوب وطريق ، وهو يراقبها في استغراق .

من الطبيعي أن موضوع شادن لا يفتح هنا في المكتب أمام هذه الصقور المستعدة لكي تلوك وتنهش في أي موضوع .

ممتعا يكون السير مع أبلة الحاجة أو الجلوس معها لساعة ، في فندق فاخر ، أو في ناد على النيل ،

ولأنها امرأة صالحة ومتماسكة ، فإن نبرات صوتها وأداءها لا يتغيران عندما لا يكون هناك ثالث معهما .

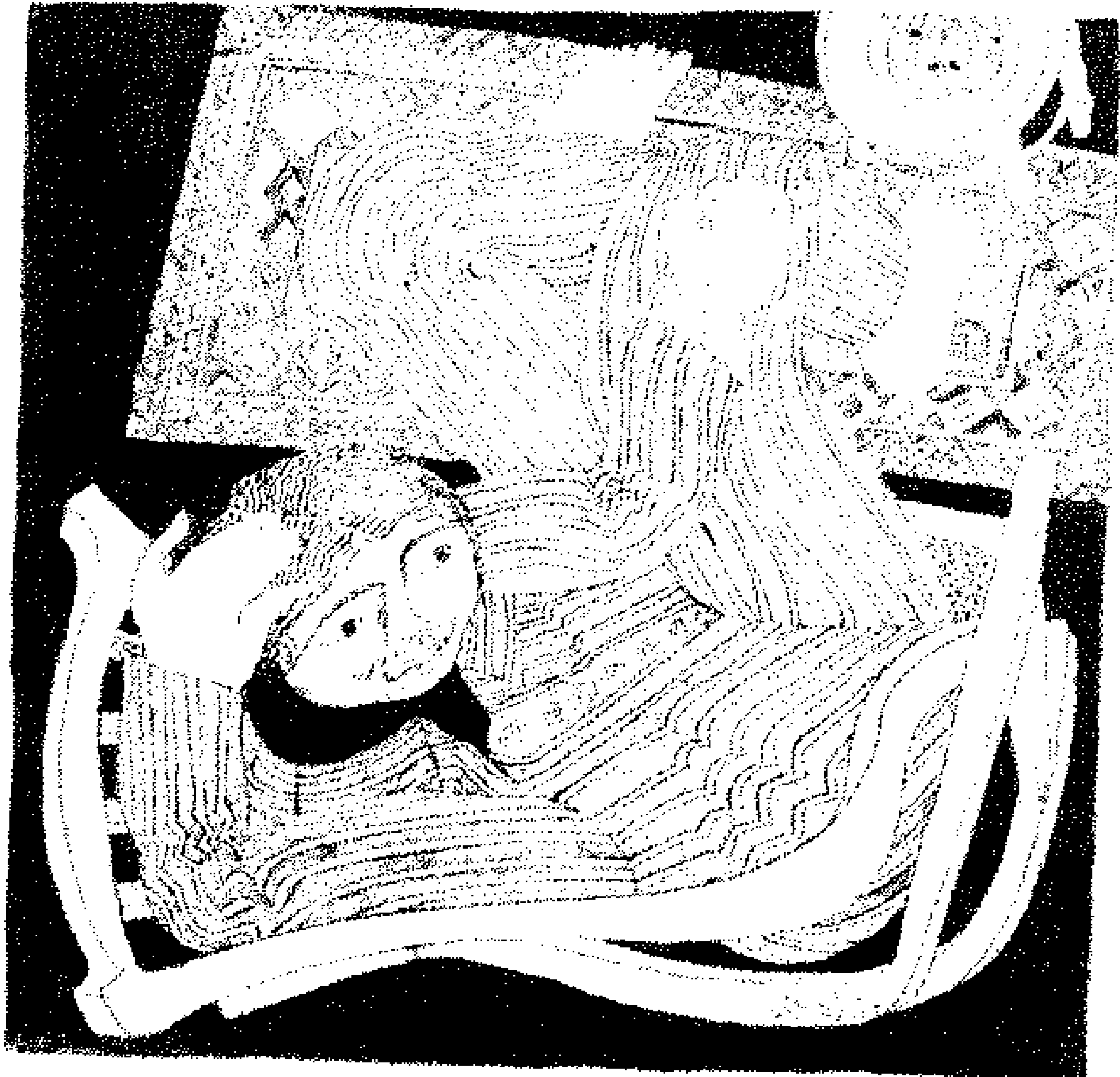
خبيرة هى بالدنيا ، تراها جيدا ، لكنها لا تعرف سر تقسيم الحظوظ ، يقينها بالله لا يجعل فى حياتها مكانا للأوهام . لها طقوس تؤديها كل الوقت ، حتى لا يجد الشيطان إليها منفذا .

. هى متأكدة أن أمين الألفى رجل طيب ، بل من أطيب من عرفت من رجال . شادن هى الأخرى طيبة، وهى تخاف عليك ، لا أنا ولا هى نملك لك شيئا . حال بيننا الموج ، وأنت لا تريد أن تركب معنا .

يسمع أمين الألفى فى شغف إلى حديث المرأة الحار المتدفق ، ويفكر فى أنه سيجد نفسه بعد أن تفارقه فى نفس البلبلة والارتباك .

لو جلس إلى شادن اليوم أو غدا ، وهذا لم يعد يحدث ، فهل يجد ما يقول ؟ حياة جرداء . عليه أن يعيش وحده هذا الخواء المرعب .

يتركه هذا اللقاء العابر المتكرر والمرغوب فى نفس الحالة دائما .. مجرد طفل تائه بين الرموز .



سبحان الله .. قال أمين الألفى عندما استيقظ صباح يوم الجمعة .. سكون خاص .. وساعة مخفية فى هذا اليوم تشيع فيه رهبة معينة وتوقعا .

شرب قهوته الطويلة ودخن عددا من السجائر .. شادن مع الأولاد عند خالهم «الحاج شوقى» «على وش الدنيا» فى الشقة التى ترى النيل ، سبحان الله .. كم هو راض عن قاع الدنيا هذا الذى يقبع فيه ، عندما يكون ساكنا هكذا خاليا من الدوشة والصراعات .

الساعات التى ينفرد بنفسه فى الشقة ، صارت عيدا يصادفه فى أيام سعده ، غالبا ما يكون وحده أيام الجمع ، قال لنفسه سبحان الله أخفى موعد الموت وتفاصيل النهاية . تراوده كثيرا فكرة الموت كمهرب أو حل ، ليس نبيا ولا شهيدا وليس منتحرا . فقط لم يكن يتصور أن يكون الحصار خانقا هكذا .

حياته بين يديه كومة بلا حل ، الهاجس الذى يتردد - وقد صاحبه طوال عمره - أنه عاش هذه اللحظة من قبل . عاشها بأدق التفاصيل نفس الساعة ونفس الضوء ونفس الفراغ المحيط به . يبعث فيه هذا

الهاجس شعورا بالغثيان وارتباكا شديدا فى الإحساس بالوجود .

سبحان الله فى هدوء البيت هذا ، والهدوء الخارجى النادر الذى يسبق صلاة الجمعة . كان أمين الألفى قادرا على أن يسترجع هواجس روحه ، ومفاصل حياته المحورية ، بلا قلق، وبقدر محتمل من تأنيب الضمير .

قال لنفسه : نادرا ما تفكر بشكل حقيقى ومفيد . متقافزا دائما حتى الإعياء . تقع دائما فى نفس النقطة التى منها بدأت . مفكر عربى حقيقى ، وحيد منفى يفكر على لحم رأسه بلا جدوى ولا جديد .

يدمن من يريد أن يوهم الناس بأنه مثقف ، كلمات مثل : قضية ، وموقف ، وخندق واحد ، وصراع .. أما أمين الألفى فهو يرى نفسه فى صالة شقته أمام أكواب القهوة الفارغة ، والمنفضة الممتلئة : عاريا ، مخترقا تماما ، منزوع السلاح . فى الحقيقة ليس عنده ما يقول ، كما أنه ليس من حقه أن يشكو .

إغواء التفكير فى النساء فى سن أمين الألفى هذه إغواء لا يقاوم .. أن تفعل الأشياء غير أن تتذكرها . يسقط على الأشياء فى الذاكرة ألوانا وأضواء جديدة . تعود اللذة أوقع ، وكذلك الجراح .

التدريب الحقيقى الذى لقيه فى حياته على الحب ،

قليل جدا لم يعش فى ظله الفعلى سوى لحظات قليلة فى حياته . هل هذا حال كل الناس ، أم هو وحده الذى لا تنمو له بذور ، وتتفتت كل الأشياء فى يديه حتما فى النهاية؟ مع «ف..» عاش حبا كقوس قزح واختفى . ومع شادن دخل حقل حنطة، أنجب منها البنت والولد . كانت حقل قمح أخضر طازجا . لم تعد الآن إلا وعدا كاذبا ، وحلم ظهيرة ثقيلا .

أمين الألفى يرى أنه من السخيف جدا التفكير فى : من المسئول فى مثل هذه المسائل ؟ المسئولية تقع على كل .. كل شئ يتحرك . يرى كيف أننا - وهذا ضمير يحب أن يستخدمه المثقفون حتى يوهمونا بوجود جماعة أو انتماء - أننا - نحن جميعا - لم نعرف الحب . لا ربانا عليه أحد ، ولا نحن اخترعناه ، بدلا منه نجد عندما ننظر فى أنفسنا مخاوف وحرمانا .. وقهرا كثيرا . نصدره للأولاد ، فخورين بما نملك من غباء .

عندما قابل شادن فى القاهرة بعد انهيارات ٦٧ ، كانت تجرى فى مكاتب الجرائد والمجلات ، تكتب موضوعات وأخبارا لإعلاء كلمة اليسار وقوى الشعب العامل ، مندفعة متحمسة ، فهى حقل قمح خصب نادر، دخل إليه هربا من النهم والهلع الذى أصاب الجميع ، تلسع أشواك السنابل فى حقول القمح . عناء

صارخ لإثبات الذات وتواصل مستحيل . ما فى يده الآن حبات قليلة من قمح جاف .

تقول له شادن إنه مازال يفكر فى «ف..» ويتمناها، لأنها رفضته ولم تتزوجه ، هل يصح للزوج أن يصارح زوجته بكل ماضيه ، المهم ، متى أدارت هى له ظهرها . هل أحبته مطلقا فى يوم من الأيام ؟!

العشق عند أمين الألفى لا يمكن أن ينقلب إلى النقيض ، الوحشة التى كان يشعر بها صباح الجمعة الحزين هذا : كثيرة على قلبه وظلم لا يستحقه .

انطلقت الخطبة وأذان الجمعة من كل ميكروفونات الجوامع المجاورة واضعة بالنسبة له نهاية ميلودرامية كأذان الفجر فى آخر الأفلام المصرية القديمة .

★★

لا يدرى أمين الألفى كيف انتقلت علاقته الخاصة والمركبة مع معانى وتصاريف قضية فلسطين السلبية ، إلى أولاده : بسمة المتسرعة التى لا تستقر مع شئ . وبهجت المندفع ، كان قد ألقى شبشبه الصغير فى وجه الجنود الاسرائيليين فى رفح عند الحدود وهم فى رحلة إلى هناك منذ سنوات .

لم يكن يلقى أمامهم خطبا ، بل على العكس كان يسخر من الكلام الحماسى العاطفى الكبير . هو لم يكذب أبدا على أولاده خاصة فى المشاعر . يعتقد أنهم

يفهمون جيدا ، يميزون الصدق من الكذب ، ببراعة ثاقبة أكثر من الكبار . شادن هى الأخرى تكره اليهود كراهية التحريم خاصة بعد أن تحجبت صارت كراهيتها صماء .

فلسطين .. متى تصمت تلك النغمة الحزينة الممضة التى تربض تحت كل الأيام والساعات . نغمة تتصاعد فى القلب مستمرة ثابتة ، رغم طبول الأكاذيب ، وطبول الموالد التي يدقها العرب عندما يتذكرون للحظة أنهم مهزومون وأن هناك وطنا سليبا ، يدقون طبول الموالد ويقيمون عروض الأزياء .. ويبنون ديكورات أفلام بينما الحزن فى القلب كامن ، والحقيقة قوية مزروعة فى الأرض على بعد ساعات فى المشرق .

أدمن أمين الألفى – من ضمن ما أدمن – أن يروى لنفسه شريطا لا يتوقف ، بداية من الأسلاك الشائكة : وخطوط الرسام الذى حفر فى ذهنه شكل الطفل الفلسطينى اللاجئ ، صورة أبواب مدينة القدس ، وصور لزعماء يهود قدامى ، وصورة خاصة جدا ليهود فقراء ينزلون من باخرة قديمة إلى أرض فلسطين ، لا يدرى كيف استطاع المصور فيها أن يمسك بلحظة ملامسة الأقدام للأرض . الصورة هذه لا تفارق ذهنه ، كما لا يغيب عن باله صوت نشيد يتردد بصوت مجروح قديم .

كمن يستمتع بتعذيب نفسه أخرج أمين الألفى خطابات صديقه ناجى فريد ، الصديق الوحيد الذى كانت له معه مراسلات يحتفظ بها ، مات ناجى فجأة فى الخليج ووضعوا جسده فى ثلاجة حتى تجمد شعر ذقنه الأبيض . دفنه هو بنفسه فى مدافن عائلته الترابية الجرداء ، كان ناجى فريد مهندسا وضابطا احتياطيا ، اشتغل بنشاط وتفوق فى إصلاح دبابات الوطن ، وبعد العبور خرج من الجيش ، واشتغل بنفس النشاط والتفوق فى التجارة فى الخليج . حقق نجاحا ماديا كبيرا ، لكنه عاد بعد سنوات فى صندوق داخل ثلاجة وقد تجمد شعر ذقنه الأبيض .

خطابات غريبة ، أكسبها موت كاتبها المبكر ملمسا وصدى ، كأنه يلامس وجهه بأصابعه .

أمين العزيز : هل تذكر عندما كنا نتحدث عن السلام. السلام وحركات التحرر ؟ هل هو نفس السلام الذى يتحدثون عنه الآن ؟ هذا السلام الجديد أشعر به أحجارا ثقيلة على قلبى . إننى أخفى وجهى بيدى عندما أقول هذه الكلمة . أقرأ مقالات «.. ؟ ..» الأخيرة ترى كيف أصبح السلام «ممسحة» .

«أمين : هنا فى الخليج قد لا تحب الفلسطينيين الذين تلتقى بهم فى النهار ، تجار .. شطار .. أولاد عم اليهود ، فى الليل لو فتح أحدهم لك قلبه ، فسوف

ترى نوعا من العذاب الإنسانى لا تصدق أنه موجود . شئ آخر غير الجحيم ، اسمه «الشتات» . فى الليلة الماضية سهرت مع رجل فلسطينى . استطاع أن يدخل إلى إسرائيل لمدة ٤٨ ساعة ، ذهب فورا إلى حيث يقع بيت عائلته المهدم ، أمسك بخرطوم ماء وأخذ يروى الأرض الخراب المحيطة بالبيت لمدة الـ ٤٨ ساعة وعاد . لم يكن يرى أية حماقة فيما فعل ، بل قال لى هذا أحسن عمل قمت به فى حياتى» .

صديقى : لا أظنك قرأت هذا التحقيق الذى كتبه صحفى إسرائيلى اسمه «أمنون ..» يصف فيه فى إعجاب وتقدير قدرة اللاجئ الفلسطينى على التكيف تحت كل الظروف ، وقدرته على استعمال الأشياء فيما لم تخلق له : كيف يسد النافذة المكسورة بالتليفزيون الخربان ، وكيف يسند الباب المكسور بالثلاجة التى لا تستعمل ، عبقرية عربية يحسدنا عليها ابن ... لكننى لا أعرف لماذا أورد هذه الفقرة فى وصف مذبحة صبرا وشاتيلا ، ولا كيف استطاع أن يكتب هذا : «فى نفس هذه اللحظة كانت امرأة تتابع تجوالها المستمر بالقرب من حفرة جماعية فى مخيم شاتيلا ، مات ١٣ عضوا من أسرتها ومن بينهم رضيعها البالغ من العمر ٤ أشهر، توقفت .. جلست على الأرض ، ذرت ترابا على رأسها وصاحت : «وإلي أين أذهب الآن ؟» .

في آخر الخطابات كتب ناجي فريد ملحوظة بطول ورقة الخطاب : أعجب إحصائية رأيتها اليوم في تقرير من الأمم المتحدة تقول : إنه في مقابل كل مقاتل يقتل في الحروب الأهلية في العالم الثالث يكون ١٠ أطفال قد قتلوا أو ماتوا في الدمار الذي تحدثه الحرب .. مبروك عليك المستقبل الإنساني المشرق .. والسلام» .

جمع أمين الألفي أوراق ناجي فريد وأعادها إلى الظرف الأبيض في الدرج الأخير ، حاول أن يخلص من شعوره بملامسة ذقن ناجي ، فوضع نفسه تحت دش الماء مغمض العينين .

★★

كانت مصر تلعب اليوم مباراة هامة مع بوركينا فاسو ، ولم نكن قد أحرزنا هدفا بعد ، فساد المدينة كلها حوالي الرابعة عصرا صمت مضاعف مريب . لو أحسن أمين الألفي التدبير لكان الآن يتفرج على المباراة وسط مجموعة يمارسون الطقس الجهنمي في غياب كامل هكذا هو : قدم هنا ورجل هناك .

المهمة العاجلة والثقيلة عليه الآن هي أن يتصل بهم عند خالهم ، هناك على وش الدنيا في الشقة التي ترى النيل : خمس غرف، وأطقم مذهبة وأجهزة إلى السقف . طعام كثير وأربعة أولاد وخير وافر وامرأة بيضاء وافرة هي الأخرى . سيرد عليه واحد من

العائلة المتخمة ، لكى يرتجل هو فيها تمثيلية إذاعية رديئة . يعتذر فيها عن الاستمتاع بكرمهم المكشوف وأطباقهم المتخمة .

فى حلقه شئ لا يبتلع من شقيق زوجته هذا . شوقى الذى يأكل كثيرا ويتكلم كثيرا ونادرا ما يسمع . لحيم ، كأن مشاعره اختنقت تحت لحم متراكم كثير . تفرغ بحماقة للامتلاك . محصن ضد الاختراق . عدله مصلحته ، وساتره الإسلام . بمناسبة وبغير مناسبة يقول : «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه» . عقد صفقة رابحة مع الله ، فاز فيها فى الدنيا والآخرة . له كف غليظة يصفع بها أولاده على وجوههم ، وإذا تحدث يصمت الجميع .

أولاد أمين الألفى الآن فى بيت هذا الرجل مع أمهم يمضون وقتا طيبا بعيدا عن جفاف حياتهم واكتئابه .. ربما يكون التفكير العلمى الوحيد الذى يمارسه أحيانا هو تفكيره فى مستقبل بسمة وبهجت ، أول الإعدادى وأول الثانوى . يحبهما كحبة عينه ، وجودهما المطلق الذى يشعر به حوله ، شعور لم يعرفه من قبل ، يجتمع فيه عشق ما مضى بما لم يحدث بعد. سبحان الله أخفى عن الناس الموت ، وتفاصيل النهاية . أخفى المستقبل وخلق الاحتمالات . ولأنه ليس معتادا على التدبير والتخطيط فإنه يقع سريعا فى خوف

جسدى وقلق. يرى الغابة التى يعيش معهم فيها والمستقبل الذى بلا ملامح ، فيرتد سريعا إلى معانيه المطلقة وأوهامه المكررة عن الحياة .

من الشارع رفع سماعة التليفون وطلب الرقم فهلت عليه الضوضاء . وسمع صوت أولاده ، بل هو متأكد أنه سمع صوت زوجته شادن يضحك من بعيد وكأنها عرفت أنه هو الذى يتكلم . بعد أن فرغ من مهمته الثقيلة وجد نفسه صغيرا جدا وسط هذه المدينة الكبيرة الخالية .

خط الأفق فى نهاية المدينة كان صارخا تصنعه أبراج عالية وجوامع جديدة مزهوة بنفسها . عادت تطارده اللحظات القديمة التى عاشها من قبل . وافتقاده لليقين بحدود جسده . قلبه سليم ، ولكنه متعب . سار خارج المدينة على الطريق المرصوف الطويل حتى لا تدركه ضوضاء نهاية المباراة التي انتهت بالنصر المبين .

عندما لاحت له شجرة السنديان خارج خط الأفق هذا ، عرف أنه يعشقها فعلا . روحه تنتعش بما ينبعث منها . لكن هل يقدر أن يشكو لها ما يشعر به فى قرارة روحه من ظلم ووحدة . كانت ترسل مع نسائم الغروب زهور الجهنمية التى تسلقت ساقها حتى النهاية. زهورا ملونة ، خفيفة شفافة تتطاير حولها فى

الهـواء أو تسقط تحتها على رؤوس العشب . أما هى فهى صامتة ثقيلة تقول له ما لا يمكن أن يفهمه .

تحت الشجرة جاءت إليه «ف..» امرأة الحلم قادمة عبر الحقول ترتدى ملابس غريبة ، ذات ألوان مبهجة فى العادة ، لا يختلط حلم أمين الألفى بواقعه هكذا ، ولكن من هذا الغروب الشتوى الشاحب والمتسارع . أحس بـ«ف..» تمسكه من يده ، وأنها تقوده عبر ممرات ضيقة متداخلة ، ينزلقان بخفة فوق سلالم ودرجات صاعدة وهابطة . إلى أن يصلا إلى شرفة واسعة تطل على الدنيا كلها من خلف زجاج سميك . يمارسان الحب واقفين ، يشاهدان الدنيا .. والدنيا لا تراهما . كان جسده يعرق فعلا ، واعترته مع نسمة هواء قشعريرة باردة حتى العظم .

عاد إلى الشجرة صائحا عليها ، مخاطبا إياها ، حتى كف عن أن يتبين ملامحها . دخلت فى نطاق الليل الذى أخذ يهبط من هنا ومن هناك . ليل جديد ، يتبعه نهار جديد ، يهبط على أمين الألفى متكررا ، بنفس الشروط ، ونفس المواصفات .

★★

الشئ غير المتوقع الوحيد فى النهار بطوله ، كانت هى الحالة التى وجد عليها الدكتور ظريف ، عندما مر عليه فى أجزاخانته ليأخذ حباته الثلاث . سعيدا ،

مبتهجا ، متحمسا لكل شئ كأنه شخص آخر ، عرف على الفور أن الدكتور البير بشاى يزوره قادما مباشرة من أمريكا . من دفعته تخرج فى قصر العينى ، نفس السنة ، يعيش هناك . أستاذ وطبيب أمراض نفسية وعصبية . يحمل لظريف صداقة عميقة ومركبة ، كان بينهما - ولا يزال - تكامل فريد ، وأخوة لم يعد لها وجود الآن . بعد أن يصل الدكتور البير إلى القاهرة بساعات ، يكون قد جاء لزيارة ظريف فى المنصورة . يمضيان معا كل ما يمكن من وقت ، رغم جدول البير المزدحم باللقاءات والأعمال . هو واحد من الاسماء القليلة المهمة والنظيفة فى تخصصه ، نادرة هى الأسماء الكبيرة - مثل اسمه - التى لا تقترن بالغنى الفاحش المثير للريب .

عرفه أمين الألفى - شخصيا - قابله مع ظريف أكثر من مرة ، وسمع عنه كثيرا ، وقرأ له مقالات يكتبها بمسيحية خيرة ، ونوايا علمية وطبية متفائلة ، كثيرا ما فكر فيه وهو غائب ، وسأل نفسه : لو أنه يعيش ما نعيشه كل يوم ، هل كان سيحتفظ بهذا القدر من التفاؤل والنظافة - حتى الجسدية - التى تميزه .

انشغل ظريف بزبون كثير الأسئلة وتركهما معا فى حديث متدفق سيعنى الكثير لحياة أمين الألفى . متى تنتهى مرحلة فى الحياة وتبدأ مرحلة أخرى . هل

يحدث الأمر فجأة ، أم يتسلل عبر فراغ اللحظات ، فتجد نفسك فجأة وقد تغيرت ؟ هل تستطيع أبدا أن ترى نفسك بعيون الآخرين ؟ أخذ بشاى يستمع إليه ويراقبه دون فضول جارح أو حكم أو اتهام . حضوره كان يشجع أمين الألفى على الكلام . معه يجد لغة غير كاذبة وغير معقمة . يتكلم معه فى مسائل ما كان يظن أنه عاد قادرا على التطرق إليها مع أحد . حدثه فجأة عن عزلته ، وعن الشجرة ، وعن الناس الذين تحولوا إلى جزر منفصلة . تكلم عن الوقع الحقيقى لمسألة فلسطين فى روحه . عن الألم والإهانة التى أصبحت زاده وشرابه . وحدثه حتى عن زوجته . يسمع جيدا ، ثم يشير برأسه أو يده فكأنه فهم حقا وشعر . كأنه يفكر معه أو بدلا عنه .

علاقة الدكتور البير بشاى مع فلسطين ، ومنظمة التحرير الفلسطينية لا تخفى على أحد ، حتى يعتقد البعض أنه فلسطينى ، ما يعمله شئ حقيقى صامت ، يصل إلى الناس بعيدا عن الكذب والشعارات والعدسات. يعمل هنا وهناك وفى الأرض المحتلة وحتى فى اسرائيل ، وسط أمواج من المحتاجين واللاجئين والجرحى ، يخوض فى عذاب وأساطير لا تخطر على عقل بشر ، استمع إليه مأخوذا بما يقول من حقائق عن المسألة الفلسطينية ، وعن المنظمة وعن البشر

الذين يتحولون وسط كل هذا العذاب ، إلى بؤر غير إنسانية من الأنانية والفساد . لا شئ يبدو غريبا لا شئ على الإطلاق . كل شئ يصب فى بحر اليأس الذى بلا شطآن .

عندما وقف ظريف على رأسيهما ، غير البير الموضوع وهو مازال حقيقيا وصادقا : غريب أنك جئت الآن . كنا نتحدث عنك ، هذه المرة لابد أن تأتى معى إلى القاهرة إلى مصحة «نابلس» فى مدينة نصر . يجب أن أفحصك هناك ، أنا وبعض الزملاء . لم أعد أحب ما أسمعه من ظريف عن أحوالك ولا أحب ما أراه أمامى ، كأنك فى التسعين تجر فى رجليك مئات السنين . كان فى صوته نبرة قدرية .

فكان هذا هو ما فعله أمين الألفى .



الضوء فى المصحة كان ثابتا طوال الوقت . ليس حادا باهرا ، لكنه لا يبقى في المكان لا ظلالا ولا غموضا . المبنى جديد يقع فى أطراف القاهرة الكبرى البعيدة ، تحيط به حدائق خضراء نظيفة . لا يعرف - أمين الألفى - كيف يأتى إلى هذا المكان وحده . جاء به الأصدقاء فى سيارة ، وهنا تركوه ، ينتظر الدكتور ألبير بشاى حتى يفرغ من مواعيد مرضاه .

كانت الأحوال قد تدهورت بسرعة فى الفترة الأخيرة، أفلتت أعصابه منه فى المدرسة عدة مرات ، كاد يشتبك مع فحل من فحول الدروس الخصوصية بسبب بديهيات لم يعد أحد يذكرها أو يهتم بها . نصحه زملاء السهرة أن يتغيب عن المدرسة أياما ، لأن الرجل يتربص به ، وقد يدبر له أى فخ أو مكيدة ، الرجل يدور قائلا : أمين الألفى يريد أن يخرب بيتى ويحرم أولادى من لقمة العيش . المشكلة الحقيقية كانت فى البيت لم يعد يستطيع أن يسمع صوت زوجته وهى تتكلم.. يقلب كيانه الصوت الذى تغير . أصبح صوتا غير إنسانى كأنه قادم من آلة مخترعة حديثا . صوتها مع أولادها كان يدفعه إلى الجنون ، مدفع

رشاش من الأوامر والنواهى والانتقادات . عندما يكون هادئا فإنه يكاد يضحك فى عبه من ردود الأولاد عليها. ولغتهم المأخوذة من قاموسه تدفعها هى الأخرى إلى الجنون فتكلم نفسها . حرب استنزاف يحترق فيها الطرفان ، ولا نصر محتمل ولا هزيمة .

السؤال الغبى الذى ظل أمين الألفى يسأله لنفسه كل يوم - بل كل ساعة : هل هذه حياة ؟ هل هذا بيت ؟ ازدادت عليه فجأة الآلام فى الساقين ، والكتف الأيمن، أصبح القيام من الفراش الجاف الذى انتقل إليه فى البلكونة عذابا جسديا ونفسيا لا يقدر عليه . يغيب عنه المبرر أو الدافع لاحتماله . نصائح الناس وإرشاداتهم عن أطباء واقتراحات لأدوية وأعشاب تطارده وتزعجه. هو يردد مع سؤاله الغبى المصمت عن الحياة والبيت كلمات يرددها كأنها أغنيته المفضلة «أخفى الله الموت ، وتفاصيل النهاية ، إذا لم تكن تدخر لنا مفاجأة فما معنى أى شئ» .

إذا وضعت السيارة على أول المنحدر فأنت فى حاجة لقوة هرقل لكى توقف اندفاعها إلي الهاوية ، رقد فى فراش المرض شهورا . لو كان من الممكن أن تسمى ما يرقد فيه فراشا ، أو ما يعانيه مرضا . تطوله ألسنة اللهب من كل جانب مع عجز وضيق يتنفسهما بدلا من الهواء . بقدر ما سمحت به الإمكانيات المادية والعملية دخل فى الدائرة الجهنمية للأطباء والتحاليل

والتكاليف والتضليل وسوء النية . الجميع يرددون لا شئ ، لا شئ بك ، كأن العالم فقد البصر والشعور . وحده يرقد فى بلكونته فى آخر النهار ، تحت زجاجها الخشن المترب ، يدخل عليه ضوء الشمس ، وضوء لمبات الشارع الكبيرة وضوء القمر وتراب وضوضاء الشارع المتقطعة المكررة . الناس جميعا مشغولون بالمضغ ، أو بالغزل على أنوال كراهيتهم المتبادلة ، ينسجون أقمشة لا يستعملونها . يسمعهم من مرقده ، ويسمع التليفزيون لكنه لا يراه ، تستوقف حالته الراهنة مصطلحات الـ ١٣ ٪ والـ١١ ٪ لا يدرك علاقة هذه النسب المئوية بالوطن ، يرى بعين خياله فلسطين تمزق بسكين باردة .

انفردت به وهو راقد أهوال قضية فلسطين . ماذا يفهم ؟ وماذا يصدق ؟ وما هى كل هذه الكركبة والقدرة على اختراع الأكاذيب ؟. الناس تركوه وحده مع ملايين الأحلام والأوهام والأشعار الميتة . هل يتذكر الأحياء أم الشهداء ، أم يكتفى بتأمل حطام ذاته ؟ هل هى قضية عامة ، سياسية وقومية أم هى قد صارت بالنسبة له قضية شخصية متورطا فيها منذ الأزل ؟

تحت نيران رشاش شادن المحموم رقد أمين الألفى فى بلكونة شقته . ارتبكت بسمة ابنته بين فراش أبيها وصوت أمها الداوى . أما ابنه بهجت فقد انزوى فى أركان الشقة مذعورا . حلاوة الروح - فقط - هى

التى أخرجته من تحت البطانية التى يلف بها نفسه فى عز الصيف ، لكى يطلب العون من الدكتور ألبير بشاى. للحق كان رجلا مصريا أمريكيا تصرف بإنجاز وحسم وبطريقة عملية ، فبعد تدخله بأيام وجد أمين الألفى نفسه فى الوقت الراهن جالسا على دكة بيضاء فى طرقة طويلة فى مصحة نابلس ، ينتظر الدكتور ألبير بشاى حتى يفرغ من مواعيد مرضاه .

★ ★

هل تريد أن تسمع منى أم تريد أن تتكلم أنت ؟ ، ولأن أمين الألفى يحب أن يسمع فقد أخذ يشاهد نفسه يعاد ترتيبها على لسان الدكتور بشاى ، يشرح له تشخيص حالته وطرق العلاج . اكتئاب مزمن طبعا ، المرض نفسى جسدى . نفسى أولا أم جسدى أولا . لا أعلم . وليس مهما . المهم أنك ستقيم معنا هنا فى مستشفى نابلس للأمراض العصبية والنفسية . اكتئاب واعتماد يقترب من الإدمان على الخمر والمهدئات معا. لا أعتقد أنه ستكون هناك أعراض انسحاب صعبة . لذلك اقترح أن تجرى لك فى نفس الوقت جراحة ضرورية وبسيطة – البروستاتا ، كل الرجال فى مصر قبل الخمسين يعانون من متاعبها فى التبول وسرعة القذف . ترتيب الدخول والنفقات ستكون أسهل لو قلنا مستشفى بدلا من مصحة . ستجرى لك الجراحة وتنتقل إلى قسم الأعصاب ، المصحة هذه الكلمة المريحة سيئة

السمعة هنا وسيئة الحظ . الاكتئاب ألف نوع ونوع ، صفحات ودرجات فى كتاب أكبر من ألف ليلة وليلة . البشر كلهم يكتبون فيه .

انتابت أمين الألفى فى الوقت الراهن رجفة خفيفة وعاوده الشعور بأنه قد عاش هذه اللحظة من قبل ، ورأى هذا الرجل النظيف يتكلم عنه بطلاقـــة تحت الضوء . ارتبكت فى ذهنه الأشياء والمعانى والكلمات. كل شئ يحمل مجرد شبه للحقيقة.

انتهى الرجل النظيف الجالس تحت الضوء من كلامه قـائلا : اعـتـمـد على ، أنا واثق أنك قـادر على أن تضحك فى النهاية .

★ ★

اســتــراح أمين الألفى لإيقــاع الزمن الجـديد فى المصحة. لم يشعر للحظة واحدة بالحبسة أو بالضيق . لم يخطر على باله أبدا أنه معزول عن العالم ، هذا هو العالم الحقيقى ، أما الآخر فقد كان كابوسا وانقشع . وجد نفسه على أعتاب ساحة من الهدوء لم يعرفها منذ مدة طويلة . بشكل ما أحس أنه لم يعد وحيدا ، وبنوع من الرضا يربط اللحظات فيضمها سياق معقول. ما أراحه حقا هو تلك العلاقة عن بعد التى قامت بينه وبين الدكتور بشاى ، المشغول دائما بعشرات المرضى والأعباء الإدارية . حتى عندما عرف أنه هو وثلاثة أو أربعـة من الفلسطينيين المتنفـذين يملكون عـددا من

المستشفيات مثل هذه ، فلم ينفره منه أى ملمح من ملامح الثراء الجديد نتن الرائحة .. فكر فى أن الخاص عندما يدخل فى العام فإن الإنسان يرتاح . أمراضه هى أمراض البلد - أمراض ملايين غيره . هو محظوظ رغم كل شئ . لكن هل هو حقا مريض ؟ أجروا له عملية البروستاتا بنجاح بعد حقنة بنج نصفى فى العمود الفقرى ، كانت مؤلمة ومربكة ، فقد ظل يراقب الجراح وهو يكوى داخله مبتسما . وشم رائحة الليزر الكاوى كرائحة دكان الكباب . ظل فى آلام جسدية قاسية بعد العملية . كل ألم يستثير فيه صلابة لم يكن يتصور أنه يملكها . كان الألم يقربه من جوهر وجوده. تذكر الصديق المتصلب المتطهر القديم، الذى كان يقول له دائما «الإنسان يجب أن يجلد نفسه حتى يجدها» ، ولم يكن يصدقه . بعد أن انتهى الألم نقلوه إلى عنبر الأعصاب الهادئ الجميل . وبقيت أوراق دخوله المستشفى تدل على أنه فى قسم الجراحة وليس قسم الأعصاب. واحدة من حيل الدكتور ألبير العملية المفيدة .

العنبر عشر غرف مصفوفة . منها أربع مغلقة ، لا تعرف إن كانت مشغولة أم خالية .. حالة واحدة مزعجة ، أما الباقى فنباتات هادئة غائبة عن الوعى، فى نهاية الطرقة صالة مستديرة يطل زجاجها الواسع على أشجار وفيلات بعيدة.

انعكاسات الظلال ليلا على الواجهات الزجاجية الكبيرة كانت تجعل من الصالة والطرقات ومداخل الغرف المفتوحة مكانا جميلا مؤنسا لا وحشة فيه .

أمين الألفى لا يصدق أن الكيماويات التى فى الأدوية هى التى فعلت به هذا . رغم أنها أدوية غالية أغلبها مستورد . لا يمكن أن تكون هى الكيماويات التى صنعت تلك المسافة الجديدة التى يستطيع أن يطولها بتنفسه ، غرفته أحسن غرفة، قريبة من الصالة ولها شرفة مستقلة . عيبها الوحيد أن بها سريرا ثانيا وقد يأتى مريض جديد فى أية لحظة لكى يقيم معه .

ممرضات العنبر كن أربع نساء قاهريات شديدات ، يتمتعن بقدرة خارقة على الحركة والكلام ، تم اختيارهن بعناية ، ويبدو أنهن يتقاضين مرتبات مجزية لأن أغلبهن يقطعن رحلة عذاب رهيبة مرتين فى اليوم من أقاصى جنوب القاهرة الكبرى حتى شمالها . هذا الأخضر الواسع النظيف . يتناوبن الورديات ويوزعن مع الطعام والدواء أشياء أخرى . تبقى حكايات الغرف الأخرى حية طريفة وحاضرة . الممرضون الرجال أغلبهم من فلسطين بعضهم مقيم فى مصر والآخر عابر من شتات إلى شتات .

هؤلاء الفلسطينيون يتكلمون فى أشياء أخرى غير حكايات الطريق والغرف . يتكلمون فى السياسة والظلم

الواقع عليهم ويتحركون فى نشاط غاضب لا جدوى منه. لولا الضجة التى يحدثها «ممدوح» مدمن الهيروين، الشاب الذى يفر من المصحة كل يومين أو ثلاثة فتعيده عائلته محدثة ضجة كبرى من الاستغاثات اليائسة ، والتدخلات الغبية . لولا هذا المهرجان المضحك المبكى لكان المكان بالنسبة لأمين الألفى : حلما أو جنة على الأرض .

اختفى من أذنيه - على الأقل - صوت المضغ الضارى الذى يدور فى الخارج حيث الشعب كله يشتغل بإصرار على أنوال الكراهية والعدوانية ، وحيث لا مهرب من خيوط المؤامرة أو تداخلات الشبكة . هنا لا يشعر بأن الناس يدفعونه لكى يخلى لهم البقعة التى يقف فيها .

★ ★

وضعت أبلة الحاجة زينب سرا مبلغا كافيا تحت حساب المستشفى ، والأهم أنها وعدت أن تقنع الوزارة بأن يكون العلاج على حساب الدولة . كذلك تقدم عدد من أصدقاء القاهرة القدامى بمد يد المساعدة المادية والشفوية .

أصبح الإناء عامرا وابتعد كذلك شيطان الحاجة المادية الذى كان عليه أن يقابله كل صباح . كان شيطان الحاجة المادية يقابله كل صباح ، جامعا مع شياطين أخرى من جراح يونيو الشخصية المهينة ،

ومن مسار فلسطين ومن غرائب العرب ، حيث يجد نفسه يجتر حياته مثلما يفعل خروف . كل شئ فى الخارج كان يدفعه إلى مربع ضيق أخير ، هنا يعيش أفقا واسعا لا يحده إلا الجنون .

أما فيما يتعلق بشادن والبيت فقد قررت هى أنها بهذا تكون قد وصلت إلى آخر المطاف ، وأنها بعون الله والأخوات سوف تنهى كل شئ . قرارها كأنه شئ يحدث لشخص غيره . هى والأولاد والمنصورة والمدرسة وكل شئ يتراجع إلى أغوار سحيقة ، ينظر إليها فى إرهاق . من بين دخان خفيف تحضر إليه شجرة السنديان المهيبة ، وعيون الفتى مفتاح الذكية النظيفة ، كما يأتى إليه من هناك ظل كان يعرفه لمقام ولى من أولياء الله ، ولى صغير ، مقامه مازال وسط الحقول . جلس فى ظل المقام ، ودخل إلى حضن آيات قرآنية كان يرددها شيخ ضرير . صاحبته الآيات عمرا طويلا .

★ ★

زارت شادن البيلى زوجها أمين الألفى ذات ليلة فى المنام. كان قد بقى مستيقظا بعد أن هدأ العنبر ونام فى الوقت الراهن، لا يسأل نفسه كم الساعة ، ساعته مغلق عليها فى الدرج يتابع أيام الاسبوع : الأربعاء ، الخميس .. لكنه لا يعرف اليوم من الشهر ولا الشهر ذاته . انساب فى طرقات المستشفى كقط لا يحدث

حتى حفيفا . جلس ساعة طويلة جنب الزجاج تحت بقع الضوء وانعكاسات الظلال على الجدران البيضاء ، صمت جسد أمين الألفى كله . لا يشعر أن له رأسا أو رجلين أو قدما ، قال لنفسه ضاحكا : لعلها علامة من علامات الشفاء . بعد أن أخذ جلسته مع الضوء والظلال عاد ثقيل النفس لكى يرقد متنبها فى فراشه يرى على ضوء الطرقة الداخل من الباب المفتوح ، السرير المجاور الخالى مشدود الغطاء . فى تلك الليلة زارته زوجته شادن فى المنام .

شادن القديمة التى أحبها ، حقل القمح الذى كان يضمه بين ذراعيه . كان الحلم جنسيا مترعا بالغرام والحماس . كانت تتأوه فى صوت مثير ، يتصاعد إلى صراخ . وعندما انتهى هو فى وقت غير مناسب .. صرخت فى ألم ، فاستيقظ. تغيرت حتى نوعية وطريقة الأحلام . كانت من قبل هواء . الآن ، صار أمين الألفى يدخل بجسده إلى الأحلام ، كأنها بحار ماء ، يشعر فى الحلم بالأشياء يلامسها وتلامسه ، لكنها صامتة متتالية كأنها نسيج واحد .. أحلام الليل وأحلام النهار، وتلك التى يراها كلما أغلق عينيه .

★★

بحث أمين الألفى طوال حياته عن الزهرة الصفراء . زهرة شجن . تشفى من ألم نبيل ، عشق مأخوذا ما فى معناها أكثر من شكلها . زهرة أو وردة لا يهم ،

المهم أن تكون صفراء لها ذلك النوع الفريد من العطاء. كانت «عفاف الـ ...» هي وردة حياته الصفراء التى وجدها فى ذلك العنبر الأبيض الذى يطل على المساء .

نزيلة معه هنا . صاحبة غرفة من الغرف المغلقة . سمع عنها كثيرا قبل أن يراها هي من عائلة فلسطينية عريقة من «أريحا» عائلة «.....» كانت تدرس فى بيروت أيام الحرب الأهلية وفى أيام الاجتياح اغتصبها ثلاثة من الملثمين . يقال إنهم من الكتائب حمل الجنود اليهود حطام جسدها المنتهك .. طارت فى رحلة علاج وترقيع جسدى ونفسى ، طارت إلى كل أرجاء المعمورة ، وتضافرت الجهود المالية مع الدبلوماسية ، فللعائلة ضلع كبير فى السلطة الفلسطينية : بالمال والنفوذ وبتمسك منها على البقاء ، استقرت هنا فى القاهرة فى مصحة «نابلس» .

نصف حاضرة ، نصف غائبة ، أقل من نصف كائن حى .

بعد عدد من اللقاءات المدبرة وغير المدبرة ، بعد أن جلس معها طويلا وهى هادئة أو هى على مشارف نوبة أو هى تحت تأثير المهدئ الشديد تيقن أن هذه الروح هى وردته الصفراء التى ظل يبحث عنها . تمنى أن يجمع لها كل لحظات السعادة والوجود المتكامل التى عرفها فى حياته وأن ينثرها تحت قدميها ، قربانا

وهدية خالصة، علها تداوى بعضا من التعاسة والشقاء الذى عاشته . كأنها فلسطين وردة صفراء . أشجان ملتهبة وجراح لا تطيب ، أثناء العلاج ازداد وزنها زيادة كبيرة، كما تغيرت طبيعة حركات جسدها تغيرا ملحوظا، فلم تعد قادرا أن تعرف هل هى ذكر أم أنثى. عفاف كانت فى أول الثلاثينيات مليئة بالفضول والطيبة والسذاجة والمرح المدفون فى العيون .

فى غير النوبات الرهيبة التى لم يكن يراها أحد سوى الطبيب وواحد من الممرضين الفلسطينيين الأشداء التى تنام فيها وتغلق عليها حجرتها لأيام . كانت له وردة صفراء ، تدخل عليه غرفته فى ضحى المستشفى الصامت ، استراحت للجلوس عنده ، تقلب فى الجرائد والمجلات . تدخن بلا انقطاع لا سجائر تكفيها . تقول «هات سيجارة» قبل أن تقول «صباح الخير» تطلب بطريقة كريمة طبيعية ، فلا تملك إلا أن تقدم لها السيجارة مبتسما رغم تحذير الأطباء والممرضين «هى لن تتركك ولن تكف أبدا» .

كان أمين الألفى يشعر بامتنان خاص لها لأنها أنست إليه، كأنها سامحته وغفرت له وقبلت أن تجلس إليه ، صامتين متقابلين يدخنان لا يذكر أنه سألها سؤالا واحدا عن الوقائع . ظلت فسيفساء جدارية الحادث البشع تتجمع وراءها ، كأنه يعاين طحن العظام وخلع الأظافر دون طلب ودون توقف وهو جالس

أمامها يدخن .

نادرا ما يطل من عينيها ذلك المرح الفلسطينى المشغول الملون .. ساعتها تضحك وتشيع حولها أمانا وفرحا ثم تنصرف وهى مازالت تدخن فى هدوء الملائكة .

★ ★

لأن أمين الألفى كان المريض الخاص للدكتور ألبير بشاى فقد وجد عناية خاصة ، عومل هناك بكثير من الاعتبار وبعض الفضول . كان زواره القليلون من أنواع وقبائل مختلفة : ناس من المنصورة ، وفلاحين ، وثلاثة من أصدقاء القاهرة القدامى ، أحدهم ممثل فى مسلسلات التليفزيون أثارت زيارته لغطا كبيرا ، أصعب الزيارات على نفسه كانت طبعا زيارة بسمة وبهجت له . هذه الزيارة التى حاول كثيرا تأجيلها أو تجنبها . الجميع أصروا على أن تتم . الحمد لله تمت ، وكانت قصيرة . جاء بهما إليه قريب له محايد ، ظل صامتا طوال الوقت ينقل بصره بينهم وهو حائر .

تقاطعت نظرات الأولاد فى الغرفة الصامتة ، فوق القناع والماكياج الذى وضعته لهما أمهما مع زكيبة من المحاذير والتنبيهات والمخاوف . جحيم كانت نظرات بهجت المحبوسة التى لم تكن تصل إلى وجه أبيه ، بل تستقر فوق صدره . جحيم آخر كانت أصابع بسمة وكفاها ، لا تعرف ماذا تفعل بهما بلا غاية ولا

مستقر فى نهاية الزيارة القصيرة ، الطويلة جدا والثقيلة ، لم يستطع أمين الألفى إلا أن يمارس هوايته الدائمة فى صياغة المواقف في جمل وتراكيب شعارية. فقال لنفسه بعد أن غادراه «أغادركم لأننى أحبكم» ، وسقط عليه بؤس ووحدة شديدان . أراد أن يصيح وراءهما علهما يسمعان «أيام وردية لكما» !

★★

لو أن أمين الألفى عاش فى أعماق البحار أو سافر فى الفضاء الخارجى لما عاش كل تلك الأحلام والتصاوير التى صار يدخل فيها ويخرج منها هنا فى هذه المصحة ، أحلام وراء أحلام تتتابع فى سلاسة غريبة . نهايات اللحظات فيها ليست حادة جارحة . والواقع اليومى الراهن ينساب أيضا كما فى الحلم بلا مقاومة . أما الوقائع التى تشبه الحقائق فهى تحدث هناك بعيدا عنه . الوقائع المليئة بالكذب والكراهية صار يسمع عنها ولم يعد مضطرا للسباحة فى هذا التيار .

فى هذه الليلة اصطفى أمين الألفى حلما قديما وأخذه إليه . خروج الجيش المصرى لحرب فلسطين ، حرب الإنجليز واليهود معا فى ٤٨ ، هو يرتدى البنطلون القصير . فى قبضة يد والده عند منطقة مجاورة للعتبة الخضراء ، لعلها شارع عبدالعزيز أو أول محمد على . جدران المبانى عريضة وضخمة جدا ،

كذلك الأبواب الخشبية عالية وراءه وأمامه . رغم محاولاته المتكررة، أبوه لا يريد أن يفلت يده . فى الرصيف نقر من ماء وطين لعلها كانت تمطر . الرصيف ، ونصف الشارع مزدحم بالواقفين والمارين فى اتجاهات مختلفة . للعربات الكبيرة والدبابات البطيئة دوى مهيب مع الهتاف والزغاريد . يرى من بين الزحام سيقان الجنود الرفيعة الملفوفة فى «القايش الكاكى» تنطلق إلى الأمام وتعود فى حركة ممتعة لا تنتهى . أبوه لا يرضى أن يفلت يده .

قبضة الحلم القديم تدخله فى ضيق عتيق وشعور بالقهر وانعدام الحرية . لا يقدر أن يصيح مع الناس أو يجرى فى قلبهم ، واقعا تحت تحفظ شديد . أشياء كثيرة مخنوقة تنتقل إليه عبر اليد القابضة ، والاجابات الضائقة المقتضبة التى تبعث على الكراهية ، كان أبوه مصرا على أن يخرج بسرعة من هذا الزحام الذى وجد نفسه فيه ، بينما أمين الألفى يموت ويبقى فى قلب هذا المهرجان .

صار متأكدا أن هذا الحلم بالذات يجعل جسده يفرز كيماويات معينة : سما بدائيا رهيبا . ممتد المفعول . تتداعى من حوله كل الظلمات ، والأسئلة الخانقة التى تجثم على صدره دون إجابات . تتجمع كل ليالى الظلام والقهر والدم خلف جحافل طوابير تحاصره . فى القلب منها معنى فلسطين السليبة . وما يدور على

الأرض من قـهـر وظلم ومـهـانـة . فلسطين الداخل والخـارج . شتـاتهم وشتـاته . كلمـة الوطن التى ينازعه فيها مردة وشياطين . فى النهاية يلقى به الحلم خارجا كرجل فقد القدرة على الانتصاب . مقصوم الظهر يحمل ما لا يطيق.

نسمة العشق مستحيلة . الأطراف أبدا لا تجتمع ، ولا يجد شيئا مكانه ، هل بدأت الضباع تنهش جثث الناس فى الشوارع ؟ يعرف أمين الألفى جيدا ، ألا شئ يخرجه من هذا التداعى المرعب الذى يطبق فيه عقله على قلبه . سوى تغيير الهواء . أوتغيير نظام الساعة . أن يخرج من العالم والزمان أو يدخل في نظام كونى جديد .

الأدوية التى يأخذها هنا ليس لها تأثير مباشر ، فهى - كما يزعمون - للعلاج ، وهو هنا لا يجد تلك الكؤوس الرمادية الفعالة التى تصيب رأسه مباشرة وتنقله إلى حال مفارق بعيد. خرج من سريره ثم من غرفته مصطحبا سجائره لكى يتنقل فى ليل الردهات الصامت . دخل إلى الليل الأبيض الطويل فى ساعة ساقطة من الزمن . بين ليل لا ينقضى ونهار لا يطلع. فى الوقت الراهن ران على الظلام خارج الزجاج ، صمت آخر ثقيل ، غير الصمت الموجود فى الممرات ، وعند مداخل الغرف المفتوحة ، أحس خلفه بالوجود الثقيل لممدوح - مدمن الهيروين ، وقد جمع جسده

النحيل على دكة رفيعة وجلس يرقبه ويدخن .

ما بينهما ظل حتى الآن مغلقا . يراقبه هو عن بعد، ويسمع كل حكاياته . لكنه يبقى أبواب الجحيم مغلقة . حرق منزوع الجلد لا يقدر أن يلمسه ، لا يعرف شيئا عن الهيروين ربما لذلك يرتعد ويخاف . يراه دخل مع الانفتاح ، مسحوق أبيض يرشه الأعداء ، لتصبح أجساد الأطفال الغضة ، جماجم وأشلاء . سرطان يذكرون اسمه فى استعذاب لفزع جديد . الليلة كان كل شئ معدا لكى يسمع من ممدوح كل ما يقدر عليه من كلام غير مترابط .

«والدى الحاج مسطول دائما ، الفحم فى المنقد ليل نهار .. حجر اسكندرانى رهيب .. وحده أو مع الزوار . رائحة الحشيش فى أنفى منذ الرضاعة» . يحسب أنه يقول حكما وأمثالا بينما كلامه وكركرة الشيشة واحد . أضحك منه وهو يقول عنى أننى مجنون . حبسنى ابن الـ .... ثلاثة أيام فى مخزن خشب .

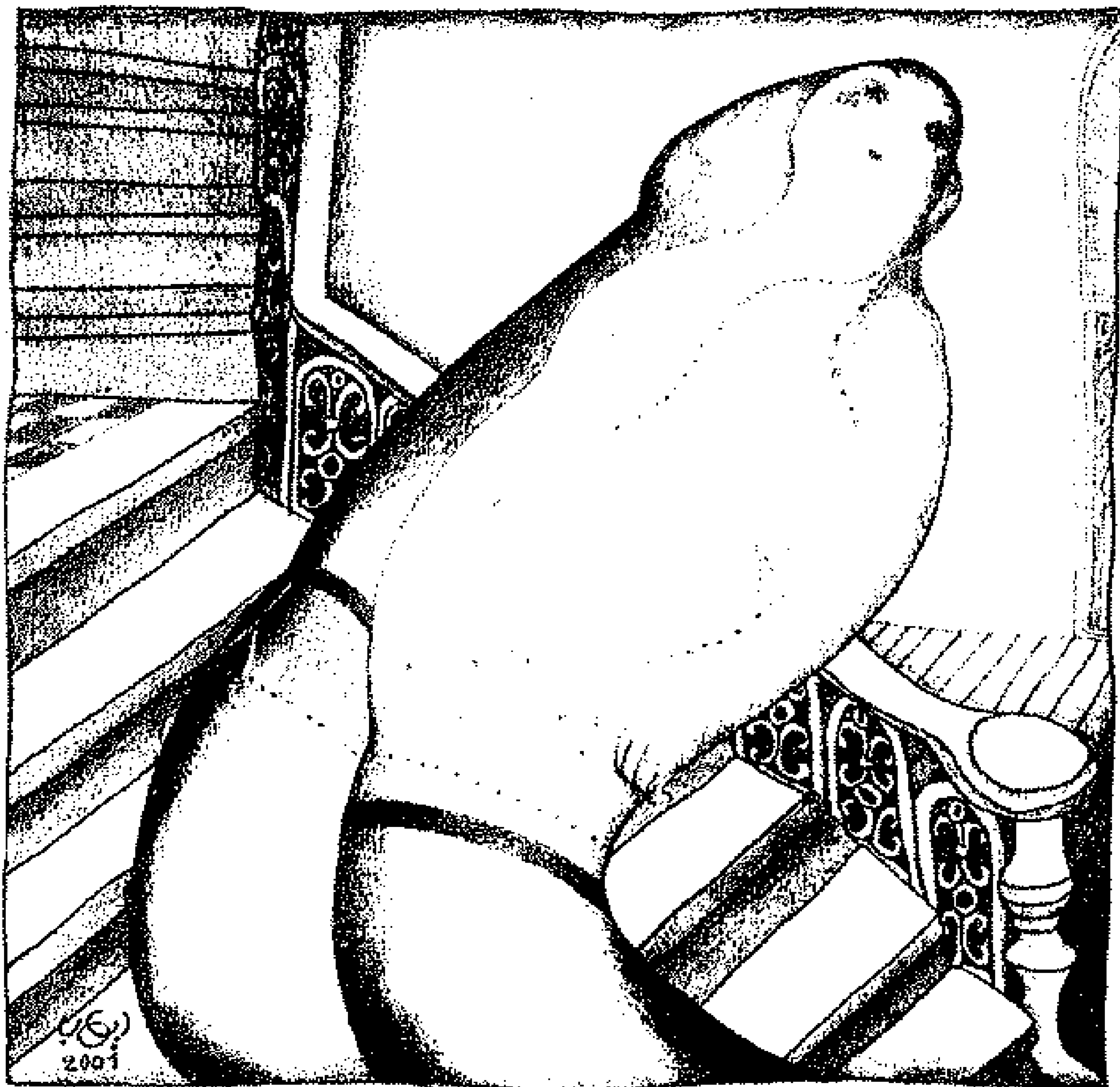
عيون ممدوح كانت تتقافز على أمين الألفى ومن حوله بينما يحك فى صدره سلسلة ذهبية غليظة ، يتكلم بسرعة . بسرعة ثم يصمت يمد يده يلكزه ليتأكد أنه يسمعه . كلماته مفردة تصيب سامعه كطلقات شاردة ، هى كما يقول : خارجة فورا من هذه الجمجمة» .

«تعرف الممثل الذى زارك ، أراه فى التليفزيون ،

صديقك . هل يضرب ؟ أنت جربت ؟» . تحسس ممدوح قطع سكين بطول خده الأيمن وقال «أنا عملت ده بالسلاح . أجمل ما فى الأبيض أنه يجعلك تراقب الدم يسيل فى هدوء» .

انتاب أمين الألفى خوف بارد . الفتى الذى لم يتجاوز العشرين، يضم جسده النحيل ويفرده كثعبان جبلى جائع . أصابعه المعروقة المتصلبة لا تكف عن الحركة باحثة عن شئ لا وجود له .

تنقل ممدوح خلفه فى الصالة والردهات وهو لا يكف عن إطلاق حديثه . ساعات طويلة مازالت بين أمين الألفى وبين إفطاره وحبوبه المهدئة . وظل ممدوح يتصاعد ولا فرار منه. اقترح أن يلعبا «البنج بونج» على الطاولة التى فى الركن .. ظلا بقية الليل يلعبان لعبا أعرج . بينهما كرة بيضاء حمقاء لا تريد أن تنكسر .


2001

هروب أمين الألفى المستمر منذ بداية الوعى ، كان من أن يجد نفسه مصبوبا فى قالب من تلك القوالب القابضة ، التى تجعل من البشر حالات بغيضة أو مثيرة للشفقة .

يفكر هكذا ليس لشعوره بأنه فريد أو أحسن من الناس .

لكن لأنه يراهم جديرين بما هو خير من ذلك . ولأن التشوه والبشاعة التى تحدث للبشر فى الوقت الراهن حوله : عبث ، بغيض لم يجد فى نفسه أبدا قدرة على ابتلاعه .

بحث وراء كل قوالب الناس التى عرفها فى حياته .

حالات ، قوالب أشرار ، مساكين ، قوالب انتهازيين ، سفلة ، ومن استسلموا لواقع لا يسمح بالأسئلة . اقترب منهم ونظر فى داخلهم قدر المستطاع . نادرا جدا ، ما صادف عشقا صادقا أو فرحا حقيقيا بالحياة . غيوم وقش ودخان ، حالات وليسوا بشرا .

عشقه الفياض داخله يجعله على «يقين» بأنه يوما

ما لابد أن يلتقى الطرفان .

الجديد الطاغى فى أحلام أيام المصحة الوردية أن أمين الألفى كان يرجع بسهولة إلى أيام طفولته وصباه، وأيام شبابه المبكر . يذهب إلى هناك بكامله ويعود ، يفرح بهذا التنقل الحر فى الزمن . لكن الصور المسترجعة لم تكن أبدا مفرحة أو سعيدة . يرى الشريط كله فيسمى نفسه ساخرا : «تعيس الألفى» أو «محبط الألفى» ويفتح «محلات الألفى للكآبة والظنون» .

يرى أمام عينيه مرة أخرى أغلب تجارب حياته تنتهى إلى لا شئ ، تتوقف قبل أن تكتمل . تفسد كل النهايات ، أو تتسرب من بين يديه كالماء . يتابع المسار الذى أوصله إلى حالة العجز عن التخطيط أو الحساب أو بناء شئ فوق شئ . اكتفى بالعشق . ولم يعرف الطموح . اتبع قلبه وروحه فصار أمره إلى ما صار إليه .

يسأل أمين الألفى تحت وطأة صور حياته المتعاقبة .

هل هو زاهد متعفف ؟ أم هو جائع نهم لا يشبع ؟

بيتهم القديم كان مزدحما عالى السقف ، أو هكذا كان يشعر لأنه أصغر إخوته ، ضائع بين سيقانه، مضغوط فى أماكن ، وهدوم ضيقة . كل الأشخاص حوله وجدوا لأنفسهم حلا إلا هو . لأن البيت يقع

ملاصقا لنهر النيل فإن السقف كان مشغولا دائما بدوائر ضوء منعكسة من الماء . تبقيه دائما متوترا. عيون تتابعه وتراقبه لا مكان ولا مهرب .

البيت لا يكون خاليا من البشر إلا لساعات نادرة قليلة . تحدث على غفلة فيسرع متلهفا ليمارس حريته التى يسمونها شروره . لاهثا تتسارع دقات قلبه ، يمزقه مقدما شعور حارق بالذنب لا يعرف له سببا . يندفع رافعا أوراق الجرائد القديمة فى رفوف دواليب إخوته . ليجد صورتين لامرأة عارية ، وصور فتيات يعرفهن ، وقصاصات من خطابات غرام . فى حقيبة أمه القديمة نقود جديدة فى «أستك» يقتبس منها ورقة أو ورقتين حسب الشجاعة التى تواتيه مقنعا نفسه بسرعة أنها سرقات شرعية . ينتفض من الرعب عندما يفتح الباب فجأة ويدخل منه الأعداء القادرين الذين يملكون للباب مفاتيح ويستطيعون الاقتحام عليه فى أى وقت .

يعرف أن لكل عالم حدودا ولكل كون أفقا ، ولكن لماذا عالمه هو دائما ضيق ، ضاغط ، قريب الحدود . أنا هنا . ربما لا يخرج صوتى أم أن العالم أصم . يفر إلى نهاية العالم. اختار بقعة على شاطئ النهر ، ضحلة ، يمتد ساحل النهر الطينى لمسافة . يحتلها «عربجية» المنطقة ، يأتون إليها ليغسلوا أجسادهم ،

وأجساد خيولهم وحميرهم المتعبة الجريحة . يراقبهم طويلا .. بعد العصر وعند الغروب تشيع فى هذه البقعة حركة صاخبة ، ملونة ، مدهشة ومليئة ببهجة بائسة، خالية من كل القوانين .

★★

لاحظ أمين الألفى أن «عفاف الـ ...» غائبة لم تظهر منذ أيام ثلاثة . أدرك أن مكانها فى حياته يزداد عمقا ورسوخا . وردة صفراء حقيقية ، تجتمع فى تلافيفها كل المآسى والأحزان، فى معناها ومبناها .

أين ذهبت يا وردتى الصفراء ؟ يا مسيحا يحمل عنى الخطايا والشرور .

نظرتك الساهمة غفران صنع من ذهول .

لا غفران ، بل ذهول صامت أصفر .

ثلاثة أيام غائبة ، لكنها حاضرة فى قلبه كل الحضور .

يفتقد جلسات التدخين الكثيف .

الكلمات المتقطعة المتباعدة فى ضحى المستشفى البليد .

لم تكن جلسات اعتراف أو تحليل . ولا بحث فى وقائع وربطها بأفكار . جلسات من عشق خالص للحياة. كم تحب الحياة ، تلك الوردة الصفراء . تعشق

الحياة ، وتشيع حولها ذلك ، رغم ما حدث لها وما هى فيه .

عفاف ، الوردة الصفراء ، كانت تجسيدا بريئا خالصا لعشق هذه الحياة الملعونة .

من السهل هنا فى العنبر استقصاء كل الأخبار ، ومعرفة كل ما يحدث فى الغرف المغلقة أو حتى فى مكاتب الأطباء . عرف بسهولة أن الوردة الصفراء دخلت فى نوبة عنيفة مدمرة من نوباتها العصبية . وأنهم غالبا استعملوا معها صدمات الكهرباء ، التى تتركها خالية من الحياة لأيام وأيام .

دخلت عليه غرفته فجأة ممرضة متينة لم يرها من قبل . تفحصته هو وعرفته فى فضول ، ثم استندت إلى حرف السرير وقالت فى نبرة فاحشة :

– تعال .. هى مش عاوزة حد يخش عليها غيرك ..

تردد ، وفكر متثاقلا ، لكنه قرر أن يكون وحده عندما يدخل إليها .

★★

أحلام وصور الرحلة الأوروبية لها فى نفس أمين الألفى مكانة خاصة مميزة . قام برحلته الأوروبية الوحيدة لأن علاقته بالتنظيم الطليعى استمرت بعد النكسة .

كانت المكافأة منحة للسفر والتدريب فى منظمات

الشباب فى البلاد الاشتراكية سابقا ، ألمانيا الشرقية ، وتشيكوسلوفاكيا والمجر وتنتهى برحلة التدريب فى موسكو عاصمة الإمبراطورية البائدة .

منذ أن عاد وهو يحاول استرجاع صور هذه الشهور الثمانية بصعوبة ، كأنها تقع خارج سياق حياته التعس . خضراء لامعة من الخارج ، لكنها محشوة بمشاعر مرتبكة تدور كلها حول «العورة» كشف العورة وستر العورة . تأتى صور ووقائع الرحلة الأوروبية فى نغم وإيقاع مختلف . لكن اختلاط عوراته وعورات الحياة أمامه صاخب . تكشفت عورة التنظيم الطليعى عندما تعرف على الزملاء فى نفس الرحلة : أحدهم كان «يفك الخط» وحاصلا على نفس هذه المنحة للدراسة والتدريب فى الخارج . عورة البلاد الاشتراكية التى تكشفت بعد أيام أمامه ، والطبقية الإنسانية بين أعضاء الحزب وباقى الشعب . عورة الأكاذيب الحضارية التى يخفيها والادعاءات . عورة التخلف والتمدن .. والتراب والثلج والوقت والموسيقى الكلاسيك . والعورة الكبرى ، عورة معاملة النساء ، وفهم معانى الحب ودقائقه .

ما دفع وقائع وصور الرحلة إلى حدود اللا معقول ، أنه كان يتحرك طوال هذه الشهور ، وسط مجموعة مختارة من البلاد العربية . وبالطبع كان الأخوة العرب

يمثلون كل ما فى واقعنا العربى المجيد ، من بلاوى ، وأمراض ، وعقد. الاكتشاف كان كم الكراهية الغبية المتبادلة . يحاولون اخفاءها فى كذب بارد . لا يتبادلون إلا الكذب وكشف العورات ، عورات الروح قبل البدن . فى صور كأنها منزوعة من كابوس يراهم: يتجرعون شرابا قويا ويعاقرون النساء ، وبعد ساعة تجدهم يتبادلون الشتائم واللكمات على ضفاف نهر الدانوب .

يريد أن يستنشق بشغف هواء جديدا . أن يعرف ويرى ويعيش . لكن الكابوس الجهنمى الذى يتحرك من خلاله يطارده بمعانى العورة. عليه دائما أن يدارى هذا ويخفى ذاك . أن يقدم تبريرات واعتذارات لكل الكون ، عن كل هذه العورات التى هى جروح لم تنظف. الاخوة العرب المختارون معه كانوا مشغولين لأقصى درجة بالنهم والاستحواذ والاغتصاب. وجد أمين الألفى نفسه هناك يتعلم داء الاعتذار ، ويدمن عليه ، ظل يمارسه وهو واقع تحت إحساس فادح بالظلم .

عثر فى حانة نبيذ قديمة ، تقع فى أطراف المدينة ، بعيدا عن مسار السيرك العربى القومى ، الذى طاح فى المدينة يبطش بالأماكن ، ويدهس الخصوصيات ، عثر فى هذه الحانة الهادئة على (مى وزياد) زوج وزوجة ، شابان فلسطينيان، يعيشان فى الغرب مع

العائلة منذ أيام بعيدة تقع بين النكبة والنكسة ، اكتشف عروبتهما ، وبصعوبة وتوجس وافقا على الحديث معه .

ولكن سرعان ما تدفقت دماء نقية في العروق وأصبحوا أصدقاء .

صار يمضى معهما أوقاتا سعيدة ، وحدثهما عن السيرك الحضارى الذى يعيش فيه . كانا يضحكان . كل ما يرويه مجرد «فلكلور» قديم يعرفه الجميع . كل هؤلاء الذين يعايشون الغزو العربى الحديث لأوروبا . لهما بيت صغير يطل على البحيرة ، جلسات وليال طويلة أمضاها فى ضيافتهما البسيطة الودود . عرف أمين الألفى وحده ليلا فى هذا المكان الساحر الجميل : أن القاموس قد تغير ، وأن الحسابات اختلفت . وأن الوطن قد يكون فيلما وثائقيا بارعا ، أو أغانى شجية على شريط .

الحياة الجديدة تفتح آفاقا لا متناهية لمن لا «يتحجر» فى موقف أو يصدق شعارات . يتابعون بدقة ما يحدث على أرض الوطن هناك. وجودهم هنا يمدهم بمعلومات وحقائق لا نعرفها . لم تكن المسألة أن عواطف ومشاعر قد ماتت ، أو أن آراء قد تحولت . المسألة أن هناك أشياء جديدة يجب أن تفعل ، ومعانى جديدة تكتشف وتعاش .

أغرب ما حدث لأمين الألفى هناك أن معنى

«الوطن» تفتتت فى رأسه وفى يديه ، فكأنه وقع فى جب عميق ، سقطت كل رايات رحلته الاوروبية من رأسه ، ولم يبق سوى الشعور «بالعورة» والسقوط فى جب عميق .

★ ★

فى منتصف الظهيرة وفى وسط حضور من أى نوع ، لم يكن أمين الألفى يكف عن مطاردة الصور والفكرة والظنون . احتار هل هى التى تأتى أم هو الذى يذهب إليها ؟ منها عاصف ، ومؤلم ، ومنها ما ينساب ويدخل إلى عظامه ، فكأنه يعيشه من جديد . الممتع الوحيد والجديد والمختلف أن اللحظات ليست مرعبة مخيفة كلحظات الحياة فى الخارج . اللحظات فى الخارج تطرح دائما سؤالها القاسى والمؤلم : ثم بعد ؟ الصور هنا والظنون والفكرة مجردة من هذا السؤال الفتاك : ثم بعد ؟! لذلك تبدو اللحظات سهلة . منسابة تصب فى حاضر راكد بلا مستقبل .

دائما ما يؤكد أمين الألفى لنفسه فى سياق شعوره بالذنب الذى لا مبرر له ، أنه شخصياً لم يعرف عضة الفقر . ذلك الفقر الذى يراه سائدا حوله . تلك الأنياب القاتلة التى تقتل فى البشر مجرد إمكانية التفكير ، دعك من التفكير فى المستقبل . الفقر «الدكر» الذى فى ظله يعرف المعنى الحقيقى للضيق ، وللمرض ،

وللانكسار وقهر الرجال . لم يعرفه هو ، لكنه عاينه وتطلع فى قلبه وعرف كيف يسدل الفقر ستائر سوداء على الكون كله ، مارد قوى لم يقدر عليه سيدنا على . مازال حرا يذرع الأرض بأقدام باطشة .

يجالسه عندما يجالس «عمار» الممرض الفلسطينى . مفتول الجسم مقتحما وافر الصحة . يأتى لكى يشرب معه قهوة عربية مغلية فى الليل . فى الثلاثين وفى رقبته عشرة اخوة وأولاد يسكنون فى قرية . على أطراف «الزقازيق» . تقيم العائلة هناك منذ النكبة وقبل النكسة . مازال هو لا يحمل جنسية ولا جوازا . لاجئا مازال على أطراف الزقازيق . لا مصرى ، ولا فلسطينى . كل ما يحمله ورقة حائلة اللون تثبت أنه يستحق الإعانة . مات أبوه وهو يزرع فى أرض غيره . فى السنوات الأخيرة لم يكن يريد أو يفكر فى العودة . كان يريد أن يدفن فى مدافن الزقازيق . هذا هو الوطن .

أنا - عمار - أيقظوا فى حياتى حلم «عودة» أية «عودة» . اليهود أغنياء جدد ينهشون الفقراء بأنياب من حديد . عندى الآن صحتى وعضلات واستطيع أن أعرق لتلك الأفواه العشرة . ولكن ثم بعد ؟!

أتمسك بالعمل هنا بيدى وأسنانى . هذا حصن أقامه الأغنياء للأغنياء أمثالهم ، ونحن نتعلق بالأسوار . لو

أدرك أبى مثل هذه الحصون !

ولكنه مات فلاحا فقيرا يعزق بالفأس فى أرض ليست له . له الآن شبر من الأرض فى أطراف مدافن الزقازيق . أقطع المسافة من هنا إلى الزقازيق مرتين فى اليوم . أخوض فى بحار من الفقراء أمثالى أسألهم : ثم بعد ؟ ولا يملكون إجابة.

أخذ يشرب القهوة المرة . ويدخن من سجائرى فى نهم من كف عن التدخين لأسباب مادية . كان يسأل أسئلة محرجة عن التناقض بين المعاملة التى يلقاها فى الدواوين وأقسام الشرطة. وبين ما يكتب فى الجرائد . أو يذاع فى التليفزيون ، ويسأل : ثم بعد ؟! ثم بعد ؟! ولم يعرف أمين الألفى له جوابا !

★ ★

فجأة هل عليه القرد أبو صديرى ، يصبغ شعره بالأسود الفاحم ويدهنه «بالفازلين» الغالى الجديد. جاء «عبدالقادر» محامى المنصورة الأشهر والأشرس . فى صحبته زوجته شادن وأبلة الحاجة زينب . دخلوا فى طابور منتصر على عدو لم يرفع اصبعا للمقاومة . حصلوا على الطلاق وكل ما أرادوه . لا أحد فى البلد كلها يستطيع أن يقف أمام أبلة الحاجة خاصة عندما يكون محاميها عبدالقادر .

كان أمين الألفى قد صار يرى الأمر كله وكأنه

بضاعة تالفة حتى أنه يدقق فيهم الآن ليتأكد أن وجودهم حقيقى وليسوا من ضمن الفكر والظنون يحملون أوراقا كثيرة لكى يوقع عليها .

الطلاق ، والتنازلات ، وطلبات شادن وباقى الجلادين ، قالوا كلاما كثيرا مأخوذا غصبا من كلمات القرآن الكريم والرسول «صلى الله عليه وسلم» . كذبوا طويلا فى قلوبهم قبل أن تكذب ألسنتهم . يكرر القرد فى وقاحة أنه تجنب فى المحكمة فتح موضوعات شائكة كثيرة . طبعا بإرشادات الحاجة التى تحمل له عطفا واعزازا .

شادن - فى الوقت الراهن - تجلس الثالثة على اليسار بعيدة عنه ، تعالج ألا تلتقى عيونهما بالنظر إلى الأرض والسقف .

وهو يسمع تعليقات المحامى المسجوعة الباهتة ، وتدخلات الحاجة التى تقولها فى تؤدة وكأن وحيا يهبط عليها . الكلام كله لا يعنى شيئا بالنسبة له ، ما يقع يقع لشخص آخر .

وجه شادن مازال جميلا فى الحجاب الملون الجديد الذى لم يره عليها من قبل . جسدها لم يكن خافيا عليه . كان مثيرا كما يظهر له فى الأحلام . توقفت عيناه على جسدها ، لكن كأنه يتحسس تمثال رخام . كلمات ومدن ، وأماكن ومعان جمعتهما معا كانت

تدوى فى رأسه كطلقات رصاص .

القاهرة خالية تحت الحصار فى أثناء أحداث الأمن المركزى. رجال فارون يختبئون فى مداخل العمارات ، وتحت السلالم المظلمة فى عز النهار . يمسك بيدها ، يعبران شارعا مفتوحا قاصدين أقرب شقة لصديق . خائفة ، قلقة مما يحدث فى البلد . فى وجنتيها حرارة وجمال يكفيان عينيه لقرون . تدمدم لنفسها : كفرة .. لصوص .

الشوارع خالية واسعة كأنها تستعد للغسيل «هل يكونون مرة صادقين مع أنفسهم ويضعون تمثالا لهزيمة يونيو فى ميدان التحرير» ، أحكم قبضته على يدها . قضيا ليلتهما فى شقة أقرب صديق . كم كانت حارة وجميلة ليلتها . حقل الحنطة كان وطنا له .

عادت أبلة الحاجة تتكلم عن الافتراق بالمعروف ، وعن مستقبل الأولاد . وعندما تسأله عن رأيه كان يبتسم ابتسامة لزجة وهو في الحقيقة يريد أن يبصق على كل شىء .

فى أيام اجتياح لبنان واحتلال بيروت كان يغلق على نفسه غرفة نومه ، مع شرابه ودخانه . رائحة كريهة يشمها فى أنفه ويتجرعها من حلقه وهو يقلب مؤشر الراديو بين القاهرة وأورشليم . تفتح شادن عليه الباب ، يرى فى عينيها معنى هزيمة الرجال . تبعد

الأولاد عن البـاب ، ويبـقى البيت صامـتا . تعاود بعد فترة فتح الباب لكى تطمئن أنه لم يمت بعد .

بعد أن حال بينهمـا الموج ، وصار بالنسبة لهـا من المغرقين كان هو يراها دائما كأنها تسير مبتعدة فى طريق طويل سريع، ولا تلتفت . يراها صخرية جامدة. أما هو فيرى نفسه وحيدا . وحيدا .. وحدته مركز الألم، ومصدر الدموع الحجرية التى تخنقه ولا تريد أن تنفرج .

يقول أمين الألفى لنفســه فى رتابة : « لكن هى ليست المسئولة عن وحدتى » .

★★

أخذ وقتا طويلا لكى يحسم أمره بشأن زيارة « عفاف الـ..» فى حجرتها . استوثق من ممرضات وممرضين يعرفهم ، أنها طلبته فعلا وأنها فى حالة تسمح بالزيارة . أخذ وقتا طويلا أيضا لكى يراجع مشاعره الكبيرة المرتبكة حولها ، ولكنه تأكد أن وردته الصفراء بغيابها مجرد ثلاثة أيام قد تركت فراغا فى قلبه كبيرا.

ارتدى قميصا قديما يحب لونه ، ووضع بعضا من ماء الليمون ، وحدق فى المرآة محاولا أن يرفع من عينيه - قدر المستطاع - ما يشعر به فى قلبه من حزن وكآبة وظنون . حاول أن يفتح عينيه وروحه . قطع الخطوات إلى حجرتها مسرعا . فتح الباب .

وجهها ضئيل شاحب فى قلب السرير . لم يبق منها سوى وجهها ، فقط عيناها ترسلان له سلاما مع ابتسامة بعيدة متعبة . جسدها كله كان مختفياً داخل مستطيل كبير من القماش الأخضر، الجسد كله كان مليئا بالجروح والإصابات . اقترحت هذه الخيمة توضع عليها عندما يأتى أحد، صوتها ضعيف مختلف، خافت ومتعب . جلس إلى جوار رأسها وسمعها بصعوبة تقول: المكافأة التى وعدونى بها عندما تطيب الجروح هى أن الطبيب سيسمح لى بالخروج معك، ليلة فى المساء. أمسية طويلة معك فى القاهرة . تأخذنى معك إلى كل مكان .. هذا طبعا إذا وافقت .

دارت رأسه فجأة . أحبها فى تلك اللحظة قدر ما عشق كل الحياة .


2001

خلال أيام وردية عاشها أمين الألفى فى المصحة لم يكن يشعر أنه يمشى على الأرض حقا .. كان يعيش فى الخيال . عندما تعيش فى الخيال فأنت لا تريد شيئا . ولا تجرى وراء شىء ، وقد لاءم هذا طبعه وجاء تماما على هواه .

كثيرا ما جلس أمين الألفى والمنضدة مبسوطة أمامه يحدق فى ثلاثة أو أربعة أشياء موضوعة عليها : سجائر، ولاعة ، كوب ماء ، منفضة وقلم : يعيد ترتيب الأشياء مرة ومرات كأنه يبحث عن وضع أمثل ، أو حل لكل الكون ، تستغرقه اللعبة تماما وينصرف ذهنه عن الغليان الذى لا يجدى فيه أى دواء .

كان فى الوقت الراهن مستغرقا فى لعبته وحيدا فى الشرفة الضيقة ، عندما رأى فى بهرة ضوء الباب جسد «الأستاذ مندور» العجوز البدين الكفيف ممسكا بيد الفتى «مفتاح» الصغير . وقفا غريبين مفاجئين ، فقد وجدا الغرفة خالية وهو يرقبهما من الشرفة .. ما أغرب تداخل الأوقات والأزمنة . رؤيتهما المفاجئة

جعلته يذكر أيام المنصورة ، وشجرة السنديان عشقه الأخير . تذكر غرابة منظره كأنه يرى نفسه وهو يتحسس الشجرة ويلامسها وهو معها وحيد بالبيجامة والشبشب عند الغروب . لم يكن يتوقع الآن أن تجود عليه الدنيا بهذا الغمر من العواطف فى قلب غرف المستشفى البيضاء الباردة . أطال صمته حتى يشبع عينيه منهما . عندما اكتشفاه قاوم أن يفتح ذراعيه ويأخذ الصبى فى صدره . يرحب بالأستاذ مندور ويقول إنه لم يكن هناك داع لكل هذا التعب بينما يراقب عواطف مفتاح وفرحه الذى يتقافز فى عينيه وعلى صفحة وجهه الأسمر النظيف .

يتصرف الناس بطريقة مختلفة تماما عندما لا تكون بينهما حسابات أو مصالح . الأستاذ مندور يشحذ حواسه الناقصة لكى يتبين المكان الجديد .

أما مفتاح فكان قد تغير كثيرا . كبر ، وشب على قدميه ، متطلعا بعينيه الذكيتين ، مرتديا قميصه الأبيض النظيف والمكوى بعناية . يتطلع حوله كأنه يرى الأشياء لأول مرة ، تطل من عينيه دهشة خصبة مباركة . كأنه قوس قزح الذى عدمناه فى السماء .

استرخى الأستاذ فى مقعده يشرب كوب شاى فتلة ، ويدخن السيجارة الأجنبية التى أشعلها له ، تقطعت بدايات الحديث بينه وبين مفتاح مرات فى البداية ، ثم

اندفع يحكى له بحرارة كل ما حدث ويحدث فى المنصورة وفى البلد ، وأغرب ما يراه فى الدنيا وفى التليفزيون .

أغرب ما كان يدهش مفتاح هو السرعة التى يتغير بها كل شىء . الناس والشوارع الجديدة . والعمارات التى تمتد بعيدا «بعيدا حيث كنا نذهب إلى الشجرة ، إلى السنديانة الكبيرة» .

لم يجد أمين الألفى فى نفسه الشجاعة لكى يسأل مفتاح : هل قطعوها ؟ .. هل قطعوا الشجرة ؟

.. ولم يعد لا هو ولا الفتى إلى ذكر الموضوع .

تدخل الأستاذ مندور شارحا أن مفتاح يشعر بأن الأشياء تتغير وتجرى بسرعة لأنه لم يعرف بعد قيمة الأيام . تلفت مفتاح حوله رافضا الدخول فى اللجاجة الفلسفية حول قيمة الأيام ، وأخذ يحاول أن يسأل : هل السرعة التى تحدث بها الأشياء طبيعية ؟ ولماذا لا يحدث له هو أى شىء ؟ الأشياء ما إن تصبح مفهومة حتى تتغير وتعود غير مفهومة . الأسئلة ، كل الأسئلة، عيب ، أو تثير مشاكل .. لماذا يقولون أشياء ثم يرجعون فيها ؟ لماذا يظل الصبى الفلسطينى يضرب بالأحجار بينما الجندى الإسرائيلى يضع القنبلة على عربة صغيرة بالريموت ، ويوجهها إلى قلب المظاهرة الفلسطينية ؟ لماذا تشتد الأمور ثم تعود لتضعف .

ولماذا لا نذهب لنساعدهم؟

لماذا .. لماذا .. لماذا تكلم الفتى الآن بالذات عن فلسطين؟ هل لأنه يعرف أن المستشفى فلسطينى وأن اسمه «نابلس» هل يتطلع الفتى إلى قلب أمين الألفى، ويعرف المصيبة التى يسببها اسم فلسطين له ؟ هل عرف الفتى بفطرته السليمة أن هذا الموضوع يربض تحت كل ظنونه وأوهامه ، وشعوره اليومى بالمهانة وقلبه المطعون ؟

أدار الأستاذ مندور رأسه دورة عميان كاملة وقال :

– أشم هنا .. رائحة فلسطين.

ساعتها لم يدر أمين الألفى ماذا حدث له . الجملة التى قالها مندور كانت أكثر مما يحتمل . لما فيها من رخاوة عربية بلاغية حديثة . حولت المعانى إلى كلمات مصطنعة كاذبة لا حقيقة ولا صدق ولا شعور . أية رائحة .. ؟ وأى فلسطين ؟ .. أشم هنا رائحة فلسطين .. ! منغمة مغناة .. شعر أمين الألفى أن الرجل يلقى عليه عبوة ناسفة ، كأن كل كلاب الأرض هجمت تنهش فيه ، ليس أمامه إلا أن يضرب بيديه العاريتين وأن يقاوم . كان يسمع صوت نفسه يتردد فى الغرفة عاليا غريبا عليه .

الجملة جسدت أمامه الأمة بأسرها التى تأكل الكلام، تمضغ الماء ، تغنى مشاعر كاذبة لكى لا ترى

الحقيقة . عاهرة تتوارى خلف غباء جلف ، جهل ونفط، وأجهزة حديثة وثياب تلمع ، لم يبق إلا أن تقف على الكرسى وتلقى علينا الأشعار، وتردد أناشيد العودة والنضال والصمود . حدثنا لو أردت عن الزيتون والبيارات .. وعن الوطن . ردد لو أحببت صورا ومعانى قديمة لم تعد تسكن رأس أحد ، سوى رأسك المحروم من الصور ، ورأسى العليل الذى هزمه الواقع وطرحه أرضا .. أمامك هنا فى مستشفى المجانين هذا.. وتقول .. أشم هنا رائحة فلسطين .

هل قال أمين الألفى كل هذا الكلام للأستاذ مندور الكبير، حسن النية ؟ أم أنه كان يصيح به إلى أقوام تسكن رأسه ؟ ليت كل الألغام المبثوثة فى صحاريكم تنفجر مرة واحدة ، ربما استيقظ الراقدون . كان أمين الألفى يحسب أن أحدا لن يوقفه. إلا أن مفتاح قال وكأنه قد كبر فجأة :

– حضرتك متضايق النهارده .

بدا عليه إعياء ، وامتلأ وجهه بالعرق فأنهى الزائران الزيارة فى ارتباك ورحلا مخلفينه مرهقا مرتبكا كفيل دخل فجأة إلى محل للزجاج والخزف .

★★

من حق أمين الألفى أن يفرح قليلا ولكن كيف يعرف الفرح طريقه إلى هذا القلب الأسير .

كان فى الدنيا قديما ، فى بعض أركانها ونواحيها جمال يوقظ العشق فى قلبه ، ويبقيه حيا . متعة تلك اللحظات لم تكن مثل اللذة والانتشاء . كانت انتقالا إلى وجود آخر ، الروح فيه تعيش فى اتساق مع ما جاورها وترتفع عن كاهلها الأحزان . أن تعرف هذا النوع من العشق مرة واحدة كافية لأن تقع فى الإدمان الممتع للبحث عنه . توقف منذ زمن عن أن يسأل ما هو هذا العشق الذى يحركه . ذلك العشق الذى جعل حياته كلها انتظار .. أو مجرد مشروع أحيانا كان يجده فى عينى زوجته . أيام يظل يبحث فى وجه بسمة ابنته عن زاوية تكون فيها بارعة الجمال آسرة للروح . مرات أحس بهذا العشق الطاهر يملأ روحه وهو يسمع موسيقى بيتهوفن . كان العشق يملأ روحه إذا جاء طاهرا وعظيما .

فى ذلك الضريح الصغير لولى الله المغمور الذى مازال يقع وسط الحقول ، أحس بذلك العشق يملأ عليه زمانه ومكانه . أراد أن يمسك به فقبض بيده على النحاس البارد الذى يحيط بالولى ولا مس الخيوط وقطع القماش المربوطة فى الشباك .. وأفلت منه العشق مرفرفا كحمامة بيضاء . أيامها وقع فى عشق شجرة السنديان ، كان فى وجودها شموخ وحرية ، مندفعة عالية ، من الأرض وتشير إلى وجود آخر .

سأل أمين الألفى نفسه : من الذى يدير دفة الزمن الآن ؟

لم يعد يرد فى خياله صور أفكار أو ظنون من الزمن الراهن القريب . لم يعد يتذكر أو يفكر فى أشياء حدثت منذ أيام ، أما الذكريات القديمة البعيدة فهى تأتى إليه ناصعة بديعة الألوان. فى الليل أحيانا كان يفكر فى شادن زوجته وفى الجسد الذى أعطته له ، ويشعر تجاهها بامتنان وإشفاق ويقول لنفسه إن روحها لم تحتمل رحلة العذاب فى انتظار اكتمال العشق . بسمة وبهجت دمعتان . أسلمهما إلى عالم لايرضاه . بلا ندم يفكر : قد يرث أحدهما عشقه كاملا . ربما يقدر أن يصنع منه شيئا .. ليس عنده شىء آخر ، الباقى فى دولاب الذكريات .. كانت (ف ..) امرأة الحلم التى أحبها قبل زواجه ، تأتيه الآن وكأنها قنينة صغيرة مليئة برماد ميت ينتظر من ينثره فى الهواء ، ويقول دون أسف لقد كانت تريد شيئا آخر .. انثرها فى الهواء .

ليس حلما جاءه أثناء النوم . لا على الإطلاق ، بل هى وقائع حدثت فعلا فى زمان ومكان لم يكن من الممكن أن يراها . شجرة السنديان كانت تقوم فى بقعة من الأرض مرتفعة قليلا بين ملكيتين أو حيازتين . على يمينها فلاح محدود الأرض يراه أحيانا هو

والعائلة تحتها أو فى ظلها - فلاح قديم فيه شبه منها. امتلك الأرض التى على اليسار مستثمر غريب جديد ، له عربات وجرارات يقف بعيدا ويشير له أعوان وعيون وسلطة . أشيع أن الشجرة تقف فى طريق مشاريعهم ، مكانها .. مدخل طبيعى للعربات والجرارات . وظلها يفسد خطط المستقبل .

ظل الغريب يرويها سرا بماء غامر . دقوا إلى جوارها «طلمبة» ماء تضخ فى جذورها سيلا لا ينقطع من المياه المندفعة . حتى اعتبر الناس أنها سقطت لأن عمرها انتهى ، أو أنه القضاء والقدر ، أو أن ريحا عاتية لم تحدث قد قصفت عمرها . لم تنشر الصحف ولم تنقل الأنباء أخبار الجريمة البشعة التى ارتكبت بالماء .

استيقظ - أمين الألفى - من نومه أو من غفلته ، على صوت سقوطها العظيم ، كانت ساقه تنتفض بلا مبرر كأنها ديك مذبوح .

★★

غاب الدكتور البير بشاى هذه المرة طويلا فى أمريكا وعندما عاد أرسل لأمين الألفى من يخبره أنه قادم لزيارته . كان الموعد قرب الظهيرة ، تأخر بعض الوقت ، ولكنه حضر نظيفا بشوشا ، مليئا بالوعود والقدرات . فحصه فحصا إكلينيكيا سريعا ، وهو يردد

كلمات مطمئنة ، تأكد أمين الألفى أنه سمعها منه من قبل . قال جسدك أساسه سليم بالانجليزية يقولون «دستور» الجسد ، أساس قوانينه ونظام عملياته الأساسية . لو أن شخصا آخر عامل جسده بهذا الإهمال والقسوة لما احتمل . لم يعرف أمين الألفى هل يفرح بهذه الملاحظة أم هى دليل على أنه نطع لا يشعر .

ضحك البير بشاى ضحكة أمريكية مقتضبة تستعمل كفاصلة لتغيير الموضوع ، أو للدخول فى الموضوع الأساسى وقال إنه يستطيع أن يعتبر العلاج منتهيا الآن ، وأنه مع بعض النظام والانضباط النفسى والجسدى يمكنه أن يواجه العالم ويعيش الحياة !

فكر أمين الألفى أنه فى الحقيقة لم يطرأ عليه أى تغيير : يتعب بسرعة من أى مجهود أو تركيز . ضيق الخلق جدا مزاجه كما هو متقلب . وأشياء أخرى كثيرة لا يعرف الآن كيف يضعها فى كلمات تقال لدكتور . الكلمة التى حملت عنه كل ارتباكه كلمة « خائف» فظل يضعها فى جمل كثيرة غير مترابطة . سمع الدكتور البير منه دون اهتمام كبير ، وقال إنه علم بالترتيب الذى حدث لكى يخرج من «عفاف الـ ..» وأن ما بينهما من صداقة ، دليل أكيد على أنه تمام ، وأنه لا يمكن أن يكون خائفا من شىء .. أنه أحسن

مما يعتقد بل أحسن مما كان الدكتور البير نفسه يتوقع.

عاود أمين الألفى الشعور بأن الدكتور يحمل له رسالة معينة أو يريد أن يقول له شيئا ما لبث أن قاله بالفعل .

– تعرف أننا لا نتركها تخرج بدون حراسة أو أمن . كون أنك ستكون كل هذا ، شيء رائع .. رائع حقا .

غير فى روشتة الدواء رفع أدوية وأضاف فيتامينات وحقنا أسبوعية .. وقال إنه سيبحث موعد خروجه مع الأطباء .

« أنا أواجه العالم وأعيش الحياة » ؟! قال أمين الألفى لنفسه ضاحكا .. وكيف ؟ للكلمات عنده معان أخرى فيما اعتقد ، ربما يتكلم عن عالم آخر .. وحياة أخرى غير هذه . تمنى لو أن أيامه الوردية هذه تمتد إلى الأبد ! حكى له أحدهم مرة عن شاعر كبير خضع لتحليل نفسى وعلاج .. وعندما انتهى العلاج لم يعد مرة أخرى إلى الشعر .. الحمد لله أنه لا يكتب الشعر، لا يكتب على الإطلاق .. آخر شعاراته فى هذا الموضوع هو ليس عندنا ما يقال .

عندما جاءه طعام الغداء وجد نفسه يأكل بشهية المحكوم عليه بالإعدام .

★★

مكان نظيف ، حسن الإضاءة اسم قصة للكاتب الغول أرنست هيمنجواى . يحب القصة جدا ، ويعاود قراءتها كثيرا . عن جرسون عجوز يبحث عن مكان يقضى فيه ليلته بعد أن ينتهى عمله . شرطه الوحيد أن يكون المكان نظيفا وحسن الإضاءة ، فهو لا ينام . خلال تفاصيل صغيرة عن الزمان والمكان يمسك العبقرى الغول بقلب الحياة الفارغ البارد المحايد، ويعيد تقديمه فى واقعية أكثر من الواقع نفسه . كأنه صنع تمثالا خالدا للوحدة .

يكرر أمين الألفى كثيرا «مكان نظيف حسن الإضاءة» وهو يفكر فى المكان الذى يمكن أن يذهب إليه هو «وعفاف الـ .. » لم يتوقف كثيرا عند ما قاله الدكتور البيير عن الحراسة والأمن، فقد سيطر عليه تجاهها شعور بأنه يريد أن يقدم لها كل ما يمكن من لحظات سعيدة . وأن يعاملها بكل ما يمكن من رقة ، فقد مرت هذه الروح فى كل عذابات الجحيم . يريد أن يجد لها مكانا يأخذها إليه . مكانا نظيفا حسن الإضاءة . هى كانت تريد أن تقابل بعض أصحاب الأسماء اللامعة .. كتابا أو رسامين أو صحفيين . صنعت من الموعد احتفالا وارتدت فستانا على صدره نقوش فلسطينية أخاذه ، وأخفت - قدر المستطاع - جراح الروح والبدن . فى طريقهما بالتاكسى إلى وسط البلد ، شعر

أمين الألفى أنه قديم جدا ، وأنه كان يعرف القاهرة ويحبها .. زمان .. أما الآن فإن عليه أن يخفى عن عينيها وعن نفسه إحساسه بالغربة فى هذا المكان المتضخم المزدحم . علمته شيخوخته الزاحفة أن يحاذر حتى فى إبداء اندر وأجمل العواطف ، لكن معها فى هذا اليوم كان يريد أن يجيب على هذه السعادة ، والفرح البرىء . أخشى ما يخشاه أن يبدو مصطنعا ، أو مجاملا أو أنه يقوم بمهمة ما . هى فى نظره تستحق أن يقدم لها : شيئا حقيقيا ، صادقا ، هى ليست فى حاجة إلى «تكريم» أو «دعم» أو تشجيع . يكفى جدا أن تحصل على شىء إنسانى حقيقى . ابتسامتها المشعة ، وشقاوتها الطفلية المفاجئة تؤكد له أن قلبها وروحها سليمان رغم كل ما مرت به .

لم يكن محل «نابولى» فى وسط البلد ، لا نظيفا ولا حسن الإضاءة ، إلا أنه كان المكان الوحيد المتاح ، الذى يلائم قدر المستطاع متطلبات هذا الخروج الملتبس مع عفاف . صار نابولى كما يسمع هو المكان الوحيد الذى يلتقى فيه الفنانون ومن يقال عنهم المثقفون المتحررون . بعض من كان يعرفهم زمان . ونماذج مستحدثة على أنماط قديمة . ستجد هى القدر المتاح من الأسماء نصف المشهورة . كانت طلباتها أن تقعد «قعدة أصدقاء مثقفين» .. وها هى تحصل على ما

تريد . كلهم كانوا موجودين المعروف منهم ونصف المعروف وقد التفوا حول كاتب كبير . ثقيل الدم ولكنهم يطلقون عليه الكاتب الساخر . معارض لا يتعدى الحدود . جرىء لكنه مسنود ، واصل لكن يحب الاحتكاك بالجماهير، بذىء ولكنه ليس فى بذاءة فلان، فهو عصرى ومتحضر .

تعرف على أمين الألفى واحد من الزملاء القدامى ، ودعاه للجلوس معه هو وضيفته يبدو أنه مهتم بضيفته. ولأن أمين الألفى ليس عصريا ولا متحضرا فقد قبل دعوته ، لم يعرفها عليها . جلس على طرف المائدة ، وبدا أن عفاف قد حصلت على ما تريد .. فها هى تجلس على طاولة واحدة مع أربعة أو خمسة ممن تقرأ أسماءهم فى المجلات والجرائد .

يتحدثون عن فيلم جديد لم يسمع به ، وعن سياسة البلد ، وكيف تدار ، ثم ينقسمون ويتبادلون همسا – شخص يجلس على منضدة أخرى مع فتاة ، وتنفجر ضحكة داعرة من الكاتب الساخر الكبير . وعفاف صابرة تتابع ، وتسأله همسا عن بعض الأسماء .

تأكد له بعد فترة ما كان يعرفه ويسمعه ، من أن الأحاديث التى تدور هنا ليست إلا ستارا لعمليات وصفقات صغيرة ، يتم خلالها بلا هوادة ممارسة كل الرذائل الأخلاقية والإنسانية بعد دهانها بكلمات الفن

والثقافة ، والعبث والاغتراب ، والاختلاف والتفرد . الطعن فى الظهر ، وقتل الناس بالكلمات وقتل الكلمات بالكذب والتصنع ممارسة يومية من يرغب فى المشاركة عليه أن يتعلم هذه الأصول أولا . بعد ذلك لا يهم أى شىء آخر .

عندما دخل عليهم الاستاذ فاروق فؤاد أو «ف . ف» ! تصايح الجميع طربا ، فهو بالتأكيد يحمل بعض النكات ، والشائعات عن الوزارة ، وهو أستاذ فى أصول اللعبة ، ومدير بارع لهذه الجلسات . عفاف تسمع عنه كثيرا ، وتقرأ له أحاديثه مع المشاهير ومقالاته النارية . جاء ناحية أمين الألفى فقد كان يعرفه منذ آماد سحيقة قبل أن يصير «ف . ف» وقبل أن يصل أمين الألفى إلى ما هو فيه . فى سرعة وتدريب عال ولياقة اضطر أمين الألفى أن يقدم له ضيفته الفلسطينية . ما أن سمع «ف . ف» اسم عائلة عفاف وما يوحى به من سلطة وشهرة ونفوذ ، حتى استنفرت كل حواسه وبدأ العمل - أصر على أن يغير الشراب الذى أمامها وسحب مقعدا جديدا لكى يجلس مجاورا لها . كان مدخله الطبيعى أن يحدث عفاف عن أمين الألفى ، وعن العلاقة القديمة بينهما ، وعن القيمة .. والقيم التى يمثلها ، وما هى إلا لحظات قليلة حتى كان قد أزاح أمين الألفى وقام بدلا منه

بكل عمليات الشرح والوصل والتحليل . استدار بمقعده كاملا ناحيتها بينما بدت هى ساعتها فرحة سعيدة تتأمل براعته .

إذا كان أمين الألفى يحسد نفسه على شىء فإنه يحسد نفسه على قدرته على استشعار أخطار مثل هذه المواقف ، ولكن فى أقصى تصوراته لم يكن يتوقع أن تتصاعد الأمور بهذه السرعة . بعد أن دار الكلام دورتين . ودار الشراب دورتين أحس أن عفاف تمد يدها لكى تمسك بيده . حسب الأمر عارضا ، فقد كان مشغولا بمتابعة حديث جانبى آخر عن حالات الشذوذ الجديدة فى الوسط .

الفيلم الدائر توقف . عندما أمسكت عفاف بيده مرة أخرى وأسقطت كوبها عن عمد وقامت واقفة . ظل « ف . ف» جالسا مع استداره بسيطة إلى ناحية أخرى . توقف الفيلم لحظة . كانت متوترة محمرة الوجه ، كأن هناك أظافر وأنيابا تنبت لها . وبذل أمين الألفى جهدا هائلا لكى يحاصر الموقف ويوقف الفضيحة . ويترك الفيلم ليدور من جديد .

وهما واقفان على الباب ، تصلح من شأنها وتبتلع حبة من حقيبتها قالت : كم هو بارع ابن الـ ... لم أدرك عندما حدثنى عن العقد ، وعن رقبتى .. ثم عن صدرى . بلهاء مازلت ؟ كنت ابتسم ، ثم مد يده على

فــخــذى فى أقل من ربع ســاعــة . أرخص الش..
يحتاجون إلى وقت أطول تصور هذا الخـ ..

سارا فى الشوارع التى بدت ساكنة . كل ما يعرفه من اعتذارات سخيف وتافه ولا معنى له . كان يجب أن يدق رأسه وأن يسحقه فى الأرض كصرصار .

فى محاولات أخيرة لاستدراك السخافة الجارحة التى حدثت اقترح أن يسيرا على النيل فى منطقة بعيدة أو أن يذهبا للعشاء فى الحسين . لكن صوتها جاءه بعد فترة بعيدا متعبا «أريد هذا جدا ، ولكن قدمى لا تحملانى الآن أعود أفضل» .

تردد أمين الألفى قليلا . لكنه حسم الأمر «بتاكسى» ليكملا فيه جنازة الطفل الرضيع الذى مات مباشرة وهو يولد . وانطلق التاكسى إلى الأطراف البعيدة للقاهرة الكبرى .

عندما أوصلها إلى غرفتها دخلت وأضاءت النور . فوجد أمامه مكانا نظيفا حسن الإضاءة ، سريرها كان مليئا بعرائس الأطفال الملونة . قدمت له كوب ماء بارد ، أعطته كتابا صغيرا غلافه أسود وعنوانه «اعترافات القتلة» . قالت لا تقرأه الليلة يكفى ما حدث من كوابيس .

★★

بين مشاعره الفوارة المرتبكة ، وأهوال الواقع الذى

يحيط به . كان هناك ذهول يتسرب إلى روح أمين الألفى . ذهول يجعله غير قادر على اتخاذ أبسط القرارات . الأشياء قد تحدث وقد لا تحدث ، هو رغم ذلك دائم التوقع ، مهدد ، وفى الانتظار . فى غرفته استلقى على السرير الإضافى الخالى بملابسه وراح يقلب فى الكتاب الصغير «اعترافات القتلة» هو مجموعة من شهادات واعترافات جنرالات وجنود إسرائيليين عما ارتكبوه من مذابح للأسرى والمدنيين المصريين فى سيناء . مذابح ومجازر حقيقية قبل أن يشيع استعمال لفظ المقابر الجماعية . توقف وأعاد القراءة حتى اكتشف أن الكتاب يضع هذه الشهادات كلها فى إطار مناقشة فكرة «طهارة السلاح اليهودى» . يناقش بجدية دينية متعصبة الفرق الدينى والإنسانى بين قتل اليهودى وقتل الأغيار - يعنى العرب . القتل الحلال والقتل الحرام . إذا رفعت السلم من الحفرة العميقة التى وقع فيها العربى وتركته لا يقدر على الصعود فهل تكون قتلته ؟ وأحدهم يقول : أحسن حالات العربى .. هى العربى ميتا . لم يكن فى الأمر جديد ، فقد عرف الناس من خلال مدارس ومراكز التطبيع عمق الهوة العنصرية القائمة .

كان أمين الألفى يؤكد لنفسه أن الجسد الممدد فى المنطقة كلها مريض بالسرطان . توقف عند صفحة

محتشدة بالسطور وقرأ : «الواقع وباعترافات جنرالات إسرائيل أنفسهم ، أن من بين الذين ذبحوا غيلة وغدرا مئات من المدنيين الذين لم يكونوا مجندين فى أى جيش ولا حتى رجال شرطة ، وليس لهم علاقة على الإطلاق بأى جهاز محارب وإنما كانوا مواطنين مصريين مدنيين تختلف أعمارهم . كانوا عمالا مصريين اختارت لهم الظروف أن يوجدوا فى سيناء للحصول على لقمة العيش فى تلك المناطق البعيدة عن بيوتهم ، حيث لم تكن هناك فى ذلك الوقت أية منشآت سياحية أو مدن كبيرة أو مشاريع زراعية واسعة . وإنما كانت هناك شركات محاجر فى وسط سيناء ، وبدايات عمل فى حقول النفط فى أبو رديس ورأس سدر ، وبضعة آلاف من السكان المدنيين فى العريش ، وبضع مئات من شباب البدو من سيناء يعملون فى هذه الشركات وحولها . هؤلاء جميعا فاجأتهم الحرب ولم يكونوا يتوقعونها تماما مثلما فوجىء ضحايا مذبحة كفر قاسم فى الخليل الفلسطينى ، وللسبب نفسه . لم تصدر لهم أية أوامر لا بالوجود هناك ولا بالتوقف عن العمل ولا بالانسحاب إلى بيوتهم . وحتى لو كانت هذه الأوامر قد صدرت فإن المصرى البسيط العادى الذى يحصل على رزقه بعمله اليومى الشاق يفضل فى أغلب الأحوال أن ينتظر حتى

لا يقال له فيما بعد : لقد تخلفت عن العمل ، أو حتى لا يقال له من إدارة شركته غرب القناة : أنك قد بددت «العهدة» (وهى على الأرجح فئوس ومجاريف» ثم توقع عليه الغرامة وقد ينهى عمله . هذه هى خبرة العمال المصريين فى مثل هذه المناطق وفى مثل هذا الوقت . لذلك ، كان من الطبيعى أن يبقى العمال والعاملون حيث هم وأن يتحرك بعضهم بين المواقع للاطمئنان على ما تركوه من «عدة» وعلى زملائهم أو حتى لاستئناف العمل ، وقع الكثيرون من هولاء العمال فى شباك القتلة الذين لا يفكرون أنهم لم يكونوا جنودا وأنهم كانوا يرتدون جلابيب ، وأنهم فوجئوا بإطلاق النار عليهم . إلي درجة أن القتلة الإسرائيليين يذكرون الآن أن بعضهم أطلق النار على سيارة نقل مكتظة بالعمال وأن ما لفت انتباهه أنهم ظلوا واقفين!! فلما اقتربوا من السيارة تبين أن الذى لم يسقط مضرجا بالدماء كان واقفا لأنه لم يكن هناك مكان ليسقط ، الجميع كان محشورا ، ويقول السفاح «آرييه بيرو» كان يوجد جنوب موقعنا محجر .. كلهم عمال تراحيل ، بعضهم من البدو وبعضهم ربما من مصر . لا أعلم .

قمنا بتقييد أيديهم والابتعاد بهم حيث المحجر ، وهناك قتلوهم . بل إنه يذكر » أن واحدا منهم نجح فى الهرب من الطلقات القاتلة ولم يصب إلا فى قدمه

وصدره ، ولكنه عاد بعد عدة ساعات وهو يسير على أربع . وبسرعة جدا اتضح أنه كان عطشانا .. عاد ليطلب منى ماء .. أنا لست مسئولا عن غباء العدو ، وبالطبع لحق بسرعة بزملائه» .

★ ★

أخرجه من صفحته أصوات أقدام تجرى وأنوار تضاء فى العنبر كله ، ونداءات غامضة آتية من قلب المستشفى .

وقف فى باب غرفته يستطلع الأمر . عرف أن ممدوح الشاب مدمن الهيروين قد فر من المستشفى . ليلة أمس . الليلة وجدوه قتيلا فى خرابة فى أطراف «جبل الدراسة» .

الآن جاءوا يفتشون غرفته .



أيام أمين الألفى الأخيرة فى المصحة لم تعد وردية ما عاد قادرا حتى أن يعيش فى الخيال بعيدا عن الواقع . لا خيال ولا واقع يمكن أن يكون ورديا مع هذه الرائحة التى تزكم أنفه دائما حتى عاد يحسبها صادرة من داخله .

يوم بعد يوم .. يوم جديد يبدأ وهو مازال حائرا لا يعرف ماذا يفعل بنفسه ؟ الشغالات تحت إشراف الممرضات ، يغسلن الغرف والطرقات فى جلبة عالية . رائحة الصابون والسوائل المطهرة ، لا تصرف الشياطين والأرواح الشريرة التى عادت تتقافز حوله كل صباح . شياطين روحه ، وشياطين الواقع المر التى تركب كتفيه . بعضها صغير ، وبعضها كبير باطش حاد الأظافر .

رغم ضوء النهار المتصاعد ، وصخب النساء وجلبة الآنية المعدنية فقد أخذ يتحرك فى غرفته وفى الطرقات المغمورة بالماء ، معتذرا باحثا لنفسه عن ركن أو «خن» يتوارى فيه من شياطينه ومما يحمله له يوم

جديد . فى كل لحظة يتمنى أمين الألفى أن يبدأ الحياة من جديد .

ما يجده فى نفسه لا يصلح ، وما يحاذر منه مخيف .

اختفت منذ فترة الصور الناصعة بديعة الألوان التى كانت تزوره . وأصبح ما يأتيه الآن معان مجردة غامضة ، تحط على صدره ثقيلة ، وتبقى جاثمة بلا إجابة . حتى لعبته التى ظل يكررها ، لعبة تنظيم وإعادة تنظيم الأشياء القليلة على المنضدة المبسوطة أمامه ، فقدت فاعليتها ولم تعد قادرة على أن تصرف ذهنه عن الجدار الصلب الذى يسير إليه .

عادى . عادى .. يوم بعد يوم ، ويأتى يوم جديد . قبل اختراع كلمة «عادى» البذيئة ، التى يتقبل بها الناس كل شىء وأى شىء . كان الجميع وقد انطلقوا بجنون ، يغتصبون كل ما حولهم ، ويتزاحمون للوقوف فوق أكتاف أقرب الناس إليهم . يراقبهم مشدوها ، يحسب أن الطوفان آت .. إلا أن السيرك الوحشى يستمر ولا طوفان . وتبقى كلمة عادى مكتوبة فى الهواء حوله . وهو يبحث عن ركن ، عن «خن» .. تذكر فى شوق بلكونة شقته فى المنصورة . لم يكتفوا باغتصابها بل نسفوا البيت كله .

غرفة «عفاف الـ .. » مغلقة لا يصدر منها صوت ، أما غرفة «ممدوح» فقد كانت مفتوحة الأبواب

والنوافذ، خالية وأثاثها مقلوب وفى فراغها عواء . الطرقات خالية مسدودة من اليمين ومن اليسار . عاد إلى غرفته ، أغلقها ، جلس على السرير الإضافى غريبا ينتظر حدوث شىء ما .

قبل العلاج وبعد العلاج ، الآن ، مازالت جلسات تعذيبه لنفسه تبدأ بشعور بالذنب والتقصير . عندما ينفرد به هذا الشعور يظل يتصاعد حتى يرى حياته مجموعة من الأخطاء البشعة . ويتحجر تحت قلبه شعور «بالخيانة» . خيانة النفس وخيانة المعانى . خيانة مجردة يتنفسها مع الهواء ، فلا يعود قادرا على أن يصالح نفسه على شىء .

قال أمين الألفى لنفسه : فليسمونه اكتئابا أو انفصاما أو انسحابا ، وليعالجونه بأقراص تؤثر على فص المخ الأيمن أو الأيسر ، قد أعالجه بكئوس الخمر الأسود ، أو الحشيش الأزرق.. لا فائدة نهر الخيانة يسرى فى اللحظات ، ويسكن فيها . جثمان الخيانة البشع سيطر على الحياة . صرع العشق الذى ذبل ومات . ليل نهار محكوم على أمين الألفى بمعاشرة الخيانة . أما من يعيش بينهم فهم خونة أيضا .. لكنهم متبجحون .

★ ★

الجديد الطاغى فى هذه الأيام التى فقدت طعمها ولونها ، أنه صار يغلق عينيه فتحط عليه ظنون وفكر

بلا صور ، جلاميد صخر تصدمه . كأنه مجرم مقبوض عليه .. يعيد تمثيل جريمته .

ما أن أفلت من قبضة يد أبيه الباطشة ، وكسر الحصار الذى كان يعيش فيه بين سيقان اخوته الكبار حتى رأى كل هذا البنيان الضخم والرجل الطاغية مجرد ديكور متداع لحياة محدودة فقيرة وتافهة . ركب حصان مراهقته وشبابه المبكر وانطلق خارجا عن البيت ، وعندما يرجع إليه كان يجده مكانا صغيرا منسيا غرب الأرض ، يراه مكانا مثيرا للشفقة والرثاء.

موظف محدود الدخل محدود الأحلام ، يعيش خيبة أمل ساكنة بعد أن فسد مشروع حياته المستقل ، وهرب منه أولاده سريعا . كل ليلة ينعس صامتا فى مقعده ، ثم يحمل نفسه صامتا أيضا إلى الفراش . قليلا ما كان يتكلم ، وعندما يفعل فإن أمين الألفى كان ينصت إلى حكاياته المهشمة ويشرب ما فيها من مرارة وحسرات .

قطع الرجل كل ما يربطه بـ «حصماية بحرى» قريته التى جاء منها . لكى يقيم حياته مع عائلته الجديدة هنا فى القاهرة. باع القراريط القليلة التى بقيت له ، ونصيبه فى البيت وحتى النخلتين .

ولكى ينجح المشروع الجديد ويقف على رجليه ، كان عليه هو أن يدير ظهره للناس ولكل ما يربطه بالفلاحين . فى بيته الجديد المحاصر فى قلب مدينة لا

ترحم .. كان أهله من الفلاحين يعاملون كمواطنين من الدرجة الثانية . ولم يكن من المستحب التحدث عنهم كثيرا أو رواية ما يصل من أخبارهم أو حكاياتهم . قام البيت المدنى الجديد على مقادير محترمة من الأنانية ، وخلل أساسى فى الشعور بالآخرين .

يذكر حكاية إبراهيم أبو خليفة المأساوية كما يذكر أساطير الكتب . كان الرجل الكبير يعيد روايتها كثيرا ، خاصة عندما دخل إلى مرض الموت . إبراهيم أبو خليفة صديق طفولته وصباه ، لم يترك القرية واشتغل هناك فى وظيفة بالسكة الحديد . إبراهيم أبو خليفة كان هو الوحيد الذى يتردد على البيت أحيانا نادرة . لم يكن أحد يفرح بالزيارة سوى أمين الألفى صبيا ، خاصة عندما يرى فى عيون الكبير لمعة حلم قديم .

الكارثة وقعت عندما اتهم إبراهيم أبو خليفة ظلما فى قضية اختلاس . لم يقف معه أحد . تخلى عنه الجميع .. حتى صديق العمر . الرجل الكبير أغلق عينيه وأذنيه وأغلق بابه .. ترك صديقه يسقط فى جب . ثلاث سنوات أمضاها فى السجن. بعدها لم يره أو يسمع عنه أحد .

أمين الألفى اقترب جدا من الرجل الكبير وهو يعانى مرض الموت الطويل المعذب . يقول عن أولاده الكبار أنهم كموج البحر ، حملوه على ظهر أحلام بعيدة ، ثم ألقوا به على رمل شاطىء مهجور . آخر ما قاله

الرجل الكبير كان عن إبراهيم أبو خليفة ، قال لابنه أمين الألفى متوهما كأنه يذهب وراء حلم :

– إبراهيم أبو خليفة بالباب . لا يريدونه أن يدخل.. جاء يرانى .. افتح له الباب .

★ ★

الاقتراح العملى للحاجة زينب كان أن «يسوى» أمين الألفى المعاش ، ويخرج مبكرا من خدمة الحكومة .. لن يكون هناك فارق فى المعاش سوى جنيهات ضئيلة لا تساوى عبء عودته إلى المدرسة ، ورجوعه إلى العمل فى هذه الظروف . وافق هو طبعا وتولت هى وأعوانها الإجراءات .

أكدت له كثيرا أنه لابد أن يبدأ من جديد . ما المانع ؟

أى مشروع تجارى من مشاريعها المتعددة يستطيع هو أن يكون مديره المسئول الأمين . لن تجد خيرا منه. تريده أن يقلب الصفحة ليبدأ صفحة جديدة ، فى المنصورة ، أو جنب المنصورة حتى يستطيع أن ..

لم يسمع أكثر من هذا ، فقد كان مشغولا بتأمل الدمار الرائع الذى يريدونه أن يبدأ منه . يرى ما وصلت إليه حياته، وكيف تحولت أحلامه وأيامه فتاتا ممضوغا يكره أن يراه أحد.. الهزائم كلها ثقيلة فى كفته ، وميزان العدل ثابت على خسارته .

فلسطين دائما تسد حلقه ، كأنه هو الذى باع والذى

خان ، هو الذى صمد ومات مثل الشجر ، هو الذى انفجر واستشهد . هو نفسه الذى عاد وكفر ، هو الذى تشرد وحوصر وقاتل وقتل .

هو الذى سكر وقامر وهرب ، حمل السلاح ، قتل الرفاق ، هو فى القدس صلى فى المسجد وكنيسة القيامة ، وتربى فى الشوارع العتيقة .

هنا فى مصر فى قلب أمين الألفى مكان القضية . الشوق والقهر وقلة الحيلة . أحلامه وأيامه وزوجته ووجوده وأولاده جرى لهم ما جرى للقضية . الوطن صار قضية . وهو هو نفسه الذى صار بلا وطن بلا قضية بلا هوية .

ايقظته أبلة الحاجة زينب من كابوس الاندماج الذى كان يجرى بينه وبين فلسطين ، صارخة : الله أكبر .. فى أتم صحة .

المذهل أن «مفتاح» كان فى صحبتها ، يدخل وراءها مخطوفا ، مأخوذا وقد ملأ عينيه قلق . هى أرادت أن يكون مفتاح معها اليوم .

أنهت قبل أن تصعد إليه أمور الحسابات . بارك الله فى كل شىء . تبقى مبلغ بسيط يأخذه عند المغادرة . يمكن أن يرجعوا جميعا الآن إلى المنصورة . هناك ألف بيت وبيت . لكنها تترك الحرية له . قلبها يقول لها إنه لن يأتى إلى المنصورة الآن .

قالت : قد تحب أن تقضى بضعة أيام وردية فى

القاهرة ... أو ربما الاسكندرية .

أهم ما اكتسبه أمين الألفى هنا فى المصحة هو قدرته على ألا يسمع الكلام الذى لا يريد أن يسمعه . شهد ميلاد بلادته ، وقدرته على ألا يشعر أو ينفعل .. ميلاد قدرته على ألا «يحس» .. الشىء الذى لم يستطع أن يتعلمه ، رغم أنه فكر أن يتدرب عليه ، هو أن يضحك من حلقه ، كما يضحك أغلب الناس دون أن يشعروا بأدني قدر من البهجة أو الفرح .

صوتها الأنثوى الناضج يعيد ترتيب الأشياء بحثا عن وضعها الأمثل ، كما يفعل هو مع أشيائه القليلة على المنضدة المبسوطة أمامه . مفتاح .. أين تذهب أنت فى كل هذا «الهيلمان» حاول مرات أن يتكلم فلم يستطع واكتفى لفترة بتقليب صفحات كتاب . عندما وجد لنفسه ثغرة قال : لابد أن عندك هنا أشياء اقرؤها عن «عزالدين المصرى» . لم يكن أمين الألفى يعرف من هو عزالدين المصرى .. أخبره مفتاح فى اضطراب بالغ بحكاية الفدائي الشهيد الذي فجر نفسه فى محل «البيتزا» الإسرائيلى فقتل ١٧ وجرح ٨٥ وصعد إلى السماء .. أخرج مفتاح من محفظته صورة صغيرة منشورة فى جريدة ، لشاب ناصع العينين جميل وسمح المحيا مكتوب تحتها «عزالدين المصرى» . قال أمين الألفى أنه سيبحث عله يجد ما يقرأه عن الشهيد .

تحركت الحاجة زينب فعرف أن النهاية قد اقتربت ..

أراد – فقط – أن يطلب من مفتاح أن يذهب إلى البلكونة بنفسه ، ومعه علبتا «كرتون» أو ثلاث ، ويرتب فيها الأشياء .. الكتب والشرائط ، وأظرف الصور ، والخطابات . هو بنفسه لا أحد غيره .. «كرتونتان» أو ثلاث على الأكثر ، وأن يحملها إلى اجزاخانة الدكتور ظريف . قل للدكتور : لا تخف ليس فيها لا متفجرات ولا مخدرات . ولا شيء يثير الفضول.

يذكر «أمين الألفى» أن مفتاح أشار بأصابعه الرفيعة إلى عينيه وأشرق وجهه فى اعتزاز اختفى هو والحاجة من عينيه قبل أن يغيبا .



وكأنه يسير بالشبشب والبيجامة فى شوارع المنصورة ليلا .. هكذا كان يشعر أمين الألفى ، وهو خارج وحده من المستشفى ، وحده مرتديا بدلته الكاملة القديمة ، يحمل فى يده حقيبة جلدية من طراز عتيق . سار لبعض الوقت فى شوارع خضراء واسعة ونظيفة ، لكى يتأكد له عند كل ناصية ، وأمام كل تقاطع ، أنه غريب هنا ، وأنه لا ينتمى ولا يعرف هذا المكان.

الآن لم يعد يمسك بدفة الزمان أحد . تأتى الأيام أو لا تأتى ، هو على أية حال فى الانتظار . هو أول ما بقى منه يتحرك ، لكنه لا يهم أحدا .

عندما وصل عبر قاهرة لا يعرفها إلى موقف التاكسيات الجديد . وجد الجمهورية كلها مبسوطة أمامه . مظاهرة ضخمة تهتف بأسماء المدن . سباق يبدأ الآن ، ولا يعرف أحد أين أو متى ينتهى . لشد ما تكون وجوه الناس غريبة وهم عازمون على السفر . غير وجوه الجالسين على المقاهى ، أو فى بيوتهم . هنا هم قادرون على ارتكاب أى شىء . وجوه : حادة ،

منفصلة ، مختلطة ، متناثرة . أصوات إنسانية وغير إنسانية . عربات متحفزة ، متقدمة ، متأخرة . أرصفة عالية بلا عدد ، زبالة وطعام مبذول ، وماء ، أغلفة ملونة . شحاذون فى الأرض . منقبات ، فاجرات ، فلاحات ، ورائحة جبن ولحم وطين وعرق ودخان .

استسلم قدر المستطاع لهذا الوجود الجديد . قال : مئات من «وابور الطحين» القديم هذا ، لا تصنع وطنا . هؤلاء ليسوا مواطنين ، كان قد اختار أن يسافر إلى طنطا . هى - كما يقولون - قلب الدلتا . المهم أنه لا يعرف فيها أحدا إلا السيد البدوى .

الجحيم الأصلى بدأ عندما انطلقت العربة والكاسيت والركاب جميعا فى نفس الوقت . فى قلب صندوق ضيق ، وسائق يقوده . يأكل ويدخن ويتكلم ويبحث عن صيد جديد . أمين الألفى كان محشورا فى المقعد الأوسط بعيدا عن الشباك ، وبعد دقائق بدأت أعراض الاختناق الحقيقى : عرق ، وهلع ، وألم فى العين اليسرى وانتفاضات فى الساق ، ورغبة حارقة فى التبول . لم يشعر بحاله أحد . رغم أن الجميع أحياء . لكز الحاج المجاور وأفهمه أنه يريد النزول . عندما وصل الأمر للسائق توقف وشيعه الجميع بالامتعاض والاستغراب والفضول والتعجل . وعندما لامس الأرض.. دفع الأجرة فانطلقوا صاخبين .

مع نسيم الهواء وارتفاع ضغط الصوت عن طبلة

الأذن ، استجمع نفسه . وأدرك أنه نزل بين كتلتين من المبانى المقامة على السريع . بقى على آخر ضوء ساعة أو ساعتان . أمامه عشر دقائق من السير إلى الأمام أو إلى الخلف ، ولابد من مطعم أو مقهى . استقبلته مع رائحة الكباب أغنية « دارت الأيام» لأم كلثوم .

وورد من البلاستيك الكثير ألوانه متكررة .

شرب ماء باردا .. وانتظر نصيبه من اللحم . امتلأ بسرعة من الطعام الدسم . سار خطوات قليلة فى التراب حتى وجد نفسه مرة أخرى على السريع ، ولم يكن آخر ضوء قد انسحب بعد .

ركب كوبريا من الكبارى الضخمة المعلقة الجديدة . هو فوق قلب الدلتا الآن . مشى طويلا على الرصيف الضيق حتى وصل إلى أعلى نقطة للصعود . تحته كانت مخاضة ماء واسعة ، مشغولة بورد النيل ، وأعشاب خضراء داكنة . أما حوله فى الأفق فقد كانت العمارات العالية المبنية بالطوب الأحمر وقد أعطت له ظهرها . تلفحه رياح السيارات المسرعة وتفاجئه بالسؤال المتكرر : أين تذهب الآن ؟

★★

أرض قرية «حصماية بحرى» التى جاءت منها بذرة أمين الألفى أولى بأيامه الأخيرة وبلحمه .

جاء إليها وكانت القرية نفسها عزيز قوم ذل . هى

تتمسك بكل شعارات وادعاءات العصر ، وتدعى المواكبة والتقدم والتحضر ، ولكنها فى الحقيقة مكان مقبض شديد البؤس .

قلبها القديم ، الخمسة أو الستة شوارع وحاراتها التى يفضى بعضها إلى البعض ، فى تلاحم حيوى قديم . هذا القلب كان يعانى من ارتفاع فى منسوب مياه الصرف الصحى .

البيوت تغوص فى الأرض شيئا فشيئا . نوافذها الكبيرة التى كانت تفتح على أرض الشارع ، لم تعد تفتح ، فقد غاصت فى الأرض .

ليست هذه هى القرية أو ريف مصر .

خليط اجتماعى واقتصادى وبيئى غريب وفريد .

عندما تسأل «أين القرية» ؟ يقول أحدهم : « النسوان بطلت تخبز .. والرجالة واقفة فى طابور العيش » . أما الشباب فيجلسون فى قهوة، وثلاث غرز، بشكل دائم وتبادلى، والبعض يسهر فى مدخل القرية عند المدافن أو بعد كشك السكة الحديد ، لأنهم لا يملكون حق الفرجة على «الفيديو» أو شراء تذكرة بانجو للجميع ، ولاشىء غير ذلك سوى الحركة السريعة للاخوة الإسلاميين بذقونهم وملابسهم الغريبة تتردد فى جمود حياة القرية مع مواقيت الصلوات الخمس .

فى ذهن - أمين الألفى - ابن المدينة وابن

الموظفين ، صورة مختلطة عن القرية وعن حياة الريف من أول : الخيمة الزرقاء ، ومحلاها عيشة الفلاح .. إلى زيارته القديمة مع الرجل الكبير ، حيث كانا يعودان بنكت وطرائف عن عائلتهما ، لا تروى أمام الغرباء . فى الصورة أيضا دعايات الثورة والإصلاح ، وصورة عبدالهادى بطل الأرض ، وقصص يوسف إدريس ، وخرافات الاتحاد الاشتراكى ، واقطاع الثورة الجديد هذا الذى امتص دم القرية ، وتركها تنزف حتى الآن .

هذا عن التاريخ . أما الجغرافيا التى خطا على ترابها بقدميه وأذهلته بشاعتها : فقد صارت ملتبسة هى الأخرى . بعد أن كان لها مدخل واحد ظليل يمتد على شاطىء ترعة ، صار لها ثلاثة مداخل رسمية وأكثر من ثلاثة «مدقات شعبية» ومنافذ خلفية للجريمة والتهريب . أخرجت - حصماية بحرى - احشاءها فى شكل أحياء جديدة مبنية «بالمسلح» يطلق عليها البحرين ، السعودية ، أو الامارات . وحتى اليونان «تيمناء» باسم البلد مصدر النقود التى بنى بها المهاجرون مستعمراتهم ، ودفعوا الرشاوى اللازمة لاستخراج رخص البناء وسط الحقول .

تصدر الأخوة الاسلاميون هذا البوار الذى فى الجسد واقاموا على واحد من المداخل «جامعا جديدا» وإلى جواره صفا من دكاكين بيع : الطيور والألبان والبقالة

ومواد البناء .

شبكة المعلومات والملاحظات والحقائق التى تجمعت عن القرية فى ذهن المفكر العربى السابق أمين الألفى - جعلته فى ذهول . ليس الظاهر الذى يراه هو المهم. ما أذهله حقا الارتباك الذى فى نفوس الناس ، فى القيم والمعاملات والسلوك ، وما يجرى وراء الجدران من قهر وظلم وخوف وفقر.

أفق مكبوت . أحلام مستحيلة ، وزمن وبشر وإمكانية مهدرة يطلع عليهم فجر غائم وينزل عليهم غروب بالتراب . يستحيل هذا الواقع على الفهم، وفقا للأفكار والتحاليل التى تعلمها من مفكرين عرب أمثاله. أفكاره وأفكارهم عن التقدم والتحضر والإنسانية ليست سوى زواحف وحشرات تتحرك وسط علب من الصفيح القديم الصدىء . محبوسا هنا فى «حصماية بحرى» حبسا اختياريا عرف أن الفلاح المصرى الذى سمع عنه قد مات ، وأنه موجود هنا بين عينة غريبة من البشر لا يجمعهما هدف أو طريق .

★★

بعد أن خرج أمين الألفى من مصحة نابلس للأمراض العصبية عرف أنه خرج كما دخل . دخل حانقا وخرج بليدا «سوى» المعاش وخرج من الحكومة قبل أن تطرده المنصورة ، شادن والبيت والأولاد كأنهم أقوام عبر عليهم من سنين . لكن لماذا تكبل قدميه

فلسطين ، يجر كرامة مهدرة وجرحا لا يطيب. هام لوقت غير معلوم فى مدن لا يعرفها متنقلا عبر الطرق السريعة ، ومواقف التاكسيات ، ومحطات السكة الحديد، واللوكاندات غير السياحية ، ومقاهى الأقاليم والبارات الشرعية وغير الشرعية ، كأنه يبحث عن حل للقضية غير الكلمات .

صار يخاف من تأثير الخمر عليه . يخاف من الفضيحة . ومن قراءة الجرائد ومن الانفجار . يقرأ بصعوبة. الغليان فى رأسه لا يتوقف . يهيم فى الزمان والمكان . يخاطب «أقواما» فى رأسه ، كل القبائل العربية لا تقبله . تفرق دمه بين القبائل ، بين الحرب والسلام بين السماء والأرض . مصيره معلق بين اللحظات . طفل تائه بين رموز ، رموز تزداد ثقلا وغموضا يسقط على أرض لا يعرفها . وسماء لا تسمح له بالدخول. أحيانا يستيقظ على أخبار من الأولاد . انتقلوا ليعيشوا مع خالهم الذى اعتبرهم أيتاما يحصل من ورائهم على ثواب وأجر عظيم . وأحيانا ينام وقد سمع أخبار فلسطين، ويحلم بالعبيد المصارعين الذين مازالوا يلقونهم للأسود .

مازالت أسئلة حياته الغبية تطارده . هل هذه حياة؟ لماذا الكذب حتى فى الخرائط ؟ لماذا تركبه فلسطين وتتلبس روحه؟ توأم الروح هذا . توأم الهزيمة . وجه الكرامة لا تعكسه المرايا . يطارده مع الاسئلة عجز

وضيق .. ويحرص على ألا يدخل فى التفاصيل : لا عن مسار الوطن ولا عن فلسطين . فى التفاصيل تسكن الخديعة الكبرى والخيانة والكذب والكرامة التى تكشف المرايا غيابها . أليس هناك أمل فى شبكة جديدة تجمع بين الناس فى عدل واتساق أكثر .

بعد أن يمشى طويلا يتخافت شعوره بالذنب ويحل محله إرهاق لذيذ فيقول : أنا علي الأقل لم أكذب . لم أعد واقعا تحت التهديد . ولم أعد انتظر .

كل الناس شاهدوا أمين الألفى فى تلك الأيام شبحا عابرا ، طويلا رث الثياب . يمشى لفترات طويلة ، مسرعا قلقا متنقلا فى مدن لا يعرفها . محدقا فى زمان قديم . صامتا يتحاشى أى قرب أو اتصال . أما هو فقد كان يشير أحيانا بيديه ضائقا من كل شىء ، وأحيانا يدمدم . كان يقول لنفسه: كيف يستطيع الناس أن يفكروا دائما أبدا فى أنفسهم فقط. ألا يعيدهم هذا حيوانات . هم حتى لا يفكرون ، يأخذون فقط .

يذكر أنها كانت ليلة قمرية ، وأنه كان على شاطىء مهجور لمدينة ساحلية منسية ، هو الآخر كان عجوزا منسيا هده التعب. استولت على رأسه فكرة أن يعود إلى «حصماية بحرى» قرية الرجل الكبير مادامت العودة ممكنة . هو ليس لاجئا وهذه ليست إسرائيل .

حصماية أولى بلحمه وبأيامه الأخيرة .

ملأت الفكرة رأسه بسكينة ، راقب القمر مسرعا فى

السماء، ودعا ربه فقط أن يجد فى القرية « إبراهيم أبو خليفة» وأن يكون مازال على قيد الحياة .

استجاب له ربه ، وعثر على إبراهيم أبو خليفة وسط كل ذلك الركام .

★ ★

فى الوقت الراهن يعيش أمين الألفى مع إبراهيم أبو خليفة محتميا به ، فى الكشك الكبير الذى أقامه أبو خليفة وسط غابة زرعها من أشجار اللوف وأشجار البوهيميا أو ست الحسن .

تعرفه كل القرية ، بل كل الناحية . يتركونه فى حاله تجنبا لضيقه باللجاجة ، وأدبه ، والتزامه بما يلزم من حقوق وواجبات ، ووقوفه الصامد المتكرر ضد الحكومة . حتى الشباب و«الصيع» يتركونه فى حاله ويبتعدون عن الكشك وعن تجارة «اللوف» التى يرعاها ويراقبها بينما هى تدير نفسها .

عثر عليه أمين الألفى كأنهما لم يفترقا أبدا . كأن السنين ، والمدن ، والخيانات ، والسجون ، والظلم ، والمستشفى والأولاد ، قصص تروى ومشاهد للتذكر . يقترب منه كثيرا كأنه لم يكن يوما بعيدا .

أبو خليفة بعد كل ما حدث شيخ قوى شديد ، حر ، وحكيم ووحده مع الله .

بعد أن خرج من السجن عاد إلى حصماية . اختار هذا الكشك ، مقررا بينه وبين نفسه أن هذا هو

التعويض الوحيد الذى يرضاه من السكة الحديد بعد أن أدخلته السجن ظلما لثلاث سنوات .

أزالوا كشك أبو خليفة هذا وهدموه على رأسه ثلاث أو أربع مرات . فى كل مرة كان يعيد البناء من جديد. لا شرطة ولا أمن استطاعت أن تبعده عن هذه البقعة أو تحركه من هذا المكان .

فى كل مرة كان يضيف لكشكه شيئا جديدا . يقوى مداخله وأساسه بأبواب خشبية قديمة ألقت بها القرية، أو فلق نخل عفى يجده فى الجوار .

طقوس حياة أبو خليفة كانت قد اكتملت ارتبطت بتلك الأخشاب ، والأشجار ، وكيزان اللوف الخضراء ، التي تنمو وحدها ، وتجف تحت رعايته وعنايته ، ليخرج قلبها أبيض من غير سوء .

أما أزهار ست الحسن التى تبزغ وسط الخضرة كل عام ، بنفسجية حمراء مشغولة برقة ودلال ، فقد كانت تقول له لقد مضى عام . وتنام ست الحسن ليلا على أغصانها تؤنس وحدته .

بعد لقمة عيش بالملح فى الصباح يشرب قهوة مغلية ، ويمضى النهار مشغولا يرعى نباتات اللوف وست الحسن ، التى لا تحتاج لشىء ، فقط يديه واهتمامه .

ينظف الكشك ، ويعيد تنظيفه ، يتوضأ ويصلى ويستحم ويطبخ لهما طعاما ساخنا في المساء .

الكشك وشبر الأرض حوله ، كان مكانا نظيفا كأنهما فى غير هذا العالم .

قال له أبو خليفة مرة ، وهما جالسان على الأرض ، وقد فرغت الحكايات :

- عندما أراك مرتاحا هنا ، تحب هذا الكشك ، وتركت الدنيا لتقيم معى .. ساعتها أقول لنفسى استطعت الآن أن أسترد منهم كرامتى .

فكر أمين الألفى وقال لنفسه : أنا أيضا أستطيع الآن أن أجلس مرتاحا إلى جوارك على الأرض .

★★

أمضى أمين الألفى أيامه الأخيرة فى كشك إبراهيم أبو خليفة . نزلت عليه فى تلك البقعة الساحرة سكينة لم يعرفها من قبل . الدنيا بعيدة لا يصله منها كذب ولا ضوضاء . هنا لم تعد الظنون تلدغه ، ولا تصله حتى أصداء فلسطين ، تحميه خضرة كثيفة ، تصنعها أوراق اللوف الكبيرة الخضراء ، وزهرة ست الحسن تتفتح كل صباح لتنام مع المساء .

لحظات اليوم كله منسابة متجانسة ، يفضى بعضها إلى بعض فى اتساق وبلا قلق . جلس على أرض ، واسند ظهره إلى جدار. ارتاح البدن . سكنت روحه وارتاحت كأنها دخلت إلى ماء عذب .

هنا عرف أخيرا ، كيف يموت ، رأى أكثر من مرة تفاصيل النهاية والرحلة عبر البرزخ .

فى نهـاية كل نهـار ، كـان يضـع نفسـه على لوح الخشب العريض لينام. يحدق فى سقف الكشك المائل القريب ، مسترجعا لحظات من يومه الهادىء تختفى ، واحدة بعد أخرى ، حتي يصل إلى آخر الصور : عيون قط تلمع وسط خضرة أوراق اللوف .

عبر باب النهاية والبرزخ يجد نفسه راقدا ميتا فى هدوء ، حـاضرا غائبا ، تحت شجرة السنديان . بدنه ضـخم ، يرتدى ثيـابا غـريبـة ملونة . قلبـه طافح بالعشق ، وعيونه مغلقة . يرى السنديانة فوقه مهيبة تصل الأرض بالسماء .

حوله دنيا واسعة ، خالية . ليس إلى جواره أحد . لم يكن حزينا . يراقب الأشياء وهى تنتهى ليس فى ضوضاء ، لكن فى سكينة .

تمـت



من أوراق علاء الديب..

ولد الفقير إلى الله ، علاء الديب، عام ١٩٣٩ مع الحرب العالمية الثانية. وشاء السميع العليم أن يمتد به العمر ليشهد بعينى رأسه على تليفزيون الـ C.N.N طائرات ١١ سبتمبر تخترق نيويورك وواشنطن لكى تعلن بدء طور جديد من المأساة التى نعيشها. كنت أحسب أننى عشت أياما صعبة. الآن أعرف أن القادم أصعب وأفدح. أيامى كانت قدرا يغلى فوق نار غير مقدسة ، لا تنضج ولا تنطفىء، يبقى الغليان مستمرا، حارما الروح من السكينة أو الاتساق أو التناغم.

عذاب «سيزيف» صاحب الصخرة، أم سير على صراط، أم هو مخدر يفضى إلى فوهة بركان. لم يكن الأمر دائما بهذه الفداحة أو الرعب، لكنها لحظات الوعى الشامل المتكررة ، التى يرى الإنسان نفسه فيها، ويرى الواقع المحيط به ، حادا جارحا ويحاول الهرب إلى الأحلام والخيال والأفكار المجنحة لكى تداوى الجروح وتجعل الحياة ممكنة، يعزى الإنسان نفسه فيقول : هذه حال الدنيا، وهذا عصر تحولات.. «وخلق الإنسان فى كبد» . لكن الفقير لله يفكر أن الانسان رغم كل شىء يستحق أفضل من هذا ، وعليه أن يبقى مستمرا فى البحث عما يستحق . أعتقد أن هذا هو جوهر الرحلة.. أومحيط الدائرة. محاولة لفض اشتباك طال به الأمد بين الذات وصورة الذات.

أحاول باستمرار أن اكتب منذ أكثر من ٤٠ سنة. لم أكتب إلا عن نفسى فى محاولة للفهم أو التفسير، أو للقبول. لهذا الموضوع الوحيد - الذى هو ذاتى - دائرة اكبر يتحرك فيها هى: «الطبقة المتوسطة». الطبقة اللغز فى تاريخنا. أعيش اللغز وأدعى معرفته. هذه الطبقة: صاحبة أكبر إنجازات، وأفظع جرائم. صاحبة الحل والربط، وقليلة الحيلة، صاحبة المثل العليا، والقيم المزيفة، الخائنة النبيلة.. صانعة العدسات الوحيدة التى أرى بها الواقع والمصير.

★★

لكل حكاية بداية، وحكايتى تبدأ من البيت فى المعادى «مازلت أقيم فى البيت الذى ولدت فيه». المعادى وهى إن كنت لاتعرف «كانت» ضاحية الأرستقراطية، والإنجليز، والباشوات، وآخر المليونيرات اليهود. فيلات شجية، وشوارع أوربية. لها جمال استعمارى عريق. حوالى اثنى عشر كيلو مترا تفصلها عن القاهرة، كلها كانت مزارع ومشاتل ورد ونخيل حتى دار السلام «دار الطين سابقا.. وحاليا الصين الشعبية» فى نهاية الأفق يقع مصنع للحرير.. وآخر للعطور.. ! «يسكن دار السلام الآن فى أحياء أغلبها عشوائية اكثر من ٣ ملايين نسمة».

تنقسم المعادى فى ذلك الوقت الذى بنى أبى فيه بيته إلى قسمين. «معادى السرايات» و «معادى البلد». السرايات حيث الأشجار والفيلات والعطر الاوربى الاستعمارى العريق.. أما فى معادى البلد، فيسكن خدم هؤلاء، والسوقة «أصحاب السوق حيث لم يكن مسموحا بفتح دكاكين فى السرايات»، هناك بائعو الخضار، والمقاهى البلدية، وصالونات الحلاقة المتواضعة والمكوجية وماسحو الأحذية.

شركة أراضى الدلتا للمعادى شركة انجليزية ، يديرها ويتولى كل شئونها فى ذلك الوقت كونستابل انجليزى «يهودى فى الأغلب» مستر ليفى . يشرف على الإدارة المالية ويحصل الفواتير والأقساط. كما يشرف على النظافة ، وعلى سريان ماء النيل فى كل القنوات. هو دولة وحده، وسلطة وإدارة (لى صديق ظريف يفكر فى كتابة كتاب بعنوان مزايا الاستعمار !) .

تبيع الشركة أراضى للبناء ، بتقسيط مريح، وبتقديم قرض للبناء وتسهيلات حقيقية . الأمر الذى دفع بالطبقة المتوسطة إلى غزو المعادى. وجئنا نحن لاننتمى «للسرايات» ولا «للبلد» فى بحرى الضاحية أقامت الطبقة المتوسطة لها عالما، منفصلا ومتصلا ، له قيم وتقاليد ومظاهر مختلفة عن أهل السرايات ، وأبناء البلد. باع والدى ما له من أرض قليلة وجاء مبكرا ، واحدا من غزاة الطبقة المتوسطة لقلعة السرايات حيث الباشوات والإنجليز.

غرس هذا الواقع مبكرا الوعى بالطبقة، وأهميتها ، وصراع وتحالف الطبقات . ظل معى هذا المعنى محيرا مثيرا دائما للتفكير.

★★

تأثير أبى على حياتى تأثير مبالغ فيه .كعقدة أوديب بالنسبة للأمهات. ربما لأننى طفله الأخير «بعد ثلاثة من الصبية وبنتين» مما أتاح لى علاقة قريبة معه وربما لأنه كان شخصية انسانية مميزة . له حضور هادىء مشع لاينسى . يحضرنى كثيرا ومازلت اشتاق إليه . اسمه «حب الله» ، وله من اسمه عندما يكتب وينطق صحيحا الشىء الكثير، شاعر وفنان متصوف فى روحه وفى طريقة تناوله للأشياء .مهندس زراعى «خريج معهد دمنهور الزراعى العريق». تخصص فى الحدائق والبساتين . وآخر وظيفة شغلها «مدير حدائق القاهرة – وزارة الأشغال» يحب عمله ، ويقدسه.«من

الأمجاد التى ظل يفخر بها طوال حياته أنه اشترك فى تصميم وتنفيذ ممرات حديقة الحيوان المشغولة «بالزلط الملون» . إلى جانب هذا كان شاعرا هجر الشعر، له بعض أوراق فيها شعر الصبا، ضاعت فى كراكيب البيت أو أظنه أخفاها أو أحرقها . قرأت معه على سجادة صلاته القرآن بصوته الخاشع الذى لاينسى . وحاولنا قراءة التوراة خاصة الأسفار الأولى. كان يحب «الأدب الصغير» و«الأدب الكبير» للإمام على كرم الله وجهه والمتنبى وديوان الحماسة. عريض الجبهة، كريم القسمات – يكسوه حزن نبيل شفاف كأنه غناء رعاة فى سهول ، ينقل إلى جليسه محبة وسكينة . يردد عندما ينزل عليه المساء فى بيته الجديد الذى ظل طويلا تحت الإنشاء. أشعارا يحفظها لعلنى أذكر منها:

كعصفورة فى يد طفل يهينها
فلا الطفل ذو عقل يرق لحالها
ولا الطير مطلوق الجناح فيذهب

وكان – رحمه الله – اذا ضحك يشرق وجهه وتدمع عيناه .

★★

الصفة الأساسية التى لاتكتمل صورته بدونها هى صفة «الديمقراطية» كانت تجعله مختلفا تماما عن رجال عصره وآباء جيله . كانوا من حولنا يمارسون جميعا أنواعا من الديكتاتورية والبطش بالأولاد والزوجات والبنات إلا هو فقد أدار البيت «٨ أفراد» بديمقراطية وتحضر حقيقى ، رغم أنه فلاح من شبراخيت – بحيرة.

★★

شقيقى الأكبر هو الأستاذ بدر الديب . وما أدراك من هو بدر الديب . هو بالنسبة لى شقيق وحبيب ومعلم وقدوة وما شئت من صفات عاطفية وعقلية وأخلاقية كانت ومازالت كما بدأت حية،

وحقيقية ومركبة إن شئت كأنها علاقة مع النفس .كما كان أبى ديمقراطيا فقد كان بدر هو نموذج «المفكر الحر» «حلمه الأوحد وإسهامه الاكبر فى حياتنا الثقافية» .

كنت اسير معه، وحدنا ، وأنا فى مطلع الصبى ، وخطر لى أن أساله عن معنى كلمة «أيديولوجية» التى كنت أقرأها كثيرا فى الكتب اليسارية، ولا أستطيع أن أمسك بمعنى محدد لها. كنت أريد أن أحصل منه على معنى محدد، أو شرح قاموسى ، فقد كنت ومازالت أعتقد أنه يعرف كل شىء ، وأنه قرأ كل شىء . أحالنى بدر ونحن نسير معا ، نحو محطة القطار، الى كتابين أو ثلاثة فى مكتبته . أظن أننى لم أقرأها حتى الان ، ولكننى استوعبت الدرس: أن أبحث أنا عن «تعريفى الخاص» أن افكر مستقلا لكى أفهم . من بدر الديب تعلمت الكثير ، تعلمت الشعر، وحفظت معه «نشيد الإنشاد الذى لسليمان» - و «الموعظة على الجبل» وقرأت معه بعض أشعار «إليوت» وجلست إلى جواره وهو يكتب مقدمته المهمة لديوان «الناس فى بلادى» لصلاح عبدالصبور . كان عضوا فى جماعة للكتاب والفنانين يجتمعون فى بيتنا، وهناك رأيتهم جميعا وأنا طفل: توفيق حنا ، محمود العالم، يوسف الشارونى ، مصطفى سويف، منير عبدالحميد ، يوسف الحطاب ، وبهيج نصار. وأقربهم إلى قلبى كان عباس أحمد رحمه الله ، صاحب أجمل روايات الأدب المصرى الحديث .. رواية البلد.

وضعنى بدر على الطريق ، وعلمنى متعة الكتابة ، ومحبة الفلسفة .

**

ليس جديدا أن أصف لك المدارس وكيف كانت ، ولكن مدارس المعادى بالذات كانت تحظى لاسباب طبقية برعاية فائقة فى

الدرس والهوايات . وقد جعلتنى البلاغة التى تعلمتها فى البيت «الخطيب الأول» فى المناسبات المدرسية . ألقى الشعر ، بل وتطور الأمر إلى التمثيل فكنت أقوم بالدور الرئيسى بالفصحى والعامية.. وتخصصت فى أدوار الريحانى «أمشير أفندى فى الفصل الأول من ٣٠ يوم فى السجن» كما تميزت المدرسة بتلك الإمكانيات كانت تعيش فى جو عاتٍ من الصراع الطبقى بين أولاد البلد وأولاد السرايات مع ما يستتبعه هذا من اتهامات «بالمياعة» والشذوذ من ناحية ، وبالفحولة والرجولة من ناحية أخرى ومفاهيم مختلطة متباينة عن الجنس والنساء .

انتهت مواهبى فى فن التمثيل عندما انتقلت إلى مدرسة الإبراهيمية الثانوية . وانتهت فترة الزعامة والتميز عندما دخلت إلى الزحام.

★ ★

فى أولى سنواتى فى كلية الحقوق جامعة القاهرة ، ارتبطت بتنظيم سرى لم أستمر فيه طويلا فقد اعتبرت مثقفا يحب الجدل والكلام كما أن أملى أنا كان قد خاب فلم يتح لى التنظيم العمل مع عمال أو فلاحين بل كان الأمر يقتصر على لقاءات . ومنشورات مكررة. أهم ما فى هذه التجربة كان لقائى بالسيدة «سعاد» التى كانت مسئولة عن نشاط الحزب فى الكلية ، كانت أول نموذج التقى به للمرأة الجديدة ، المناضلة صاحبة الرأى ، والموقف. صنعت السيدة سعاد أو الرفيقة سعاد معنى خاصا للمرأة الحقيقية الجدعة فى حياتى حتى الآن. لا أدرى كثيرا عن حياتها الخاصة ولا الخلفية التى جاءت منها ، ولكنها لم تكن تحمل زيف المثقفات «ولا ادعاء الزعيمات كانت مؤمنة بقضية ، تعيشها فى سلوكها وملبسها وطريقة تعاملها مع الناس . أين ذهبت الرفيقة سعاد وماذا فعلت بها التقلبات والأيام ؟..

انتهت التجربة بسرعة ، ولم يتم اعتقالى والحمد لله.

بقى فى حياتى عطر سعاد الحقيقى، وكثير من معانى المعارضة، والصلابة والشرف.

★★

بعد ذلك بدأت الأسئلة ، تلد اسئلة . بدلا من حصولى على إجابات بدأت الأشياء التى أملك فيها يقينى تقل. وبدأت اشعر بمشاكل أخرى لانتمائى للطبقة المتوسطة. صارت قيم الطبقة تشكل عائقا فى التعبير وعائقا فى الاتصال.

يحصل الواحد منا – أبناء الطبقة المتوسطة – على اكثر من حقه. أنظر إلى العارقين الكادحين حولك. هل تعرف كم يقبضون فى آخر النهار؟ وكيف ينامون ..وكيف تنام أنت ! فكر فى المزايا المجانية الجسيمة التى تحصل عليها بجهد قليل أو بلا جهد على الاطلاق . شعور ساذج بالذنب مستمر ولكنه يكفى لكى يثير دائما نقاشا نظريا لم يحسم عن دور الطبقة المتوسطة فى بلادنا وماذا أخذت وماذا أعطت . وعن مصيرها الذى انتهت اليه ، وعن اختلافها عن «الطبقة المتوسطة» ودورها مع الثورة الفرنسية. فى ضوء هذا الشعور بالذنب الساذج والمستمر: تفكر فى ذلك التقسيم القديم الذى شق البلد نصفين: التعليم المدنى، والتعليم الدينى تفكر فى العلاقة القديمة مع أوربا، والعلاقة الجديدة مع أمريكا ، تفكر فى مشكلة «الذوق المصرى العام» مم تكون وإلى ماذا يصير فى ظل الغزو المضطرب للقيم والأشكال والمعانى الجديدة . رغم كل ما حل بالطبقة المتوسطة من مآس فهى الوحيدة التى تملك القدرة على التواصل وعلى التعبير . لكنها هى نفسها مضطربة متناقضة تعطى إشارات متباينة لاتزيد حياة الناس إلا ارتباكا.

على من يبحث عن هوية لمصر ، أو عن فن لمصر أن يبحث

عنه خارج نطاق الطبقة المتوسطة بكل الأشكال التى أخذتها سابقا وحتى الآن.

**

يستدعى هذا الحديث فى ذهنى اماكن .. اولها البيت .. البيت معنى نفتقده كثيرا فى حياتنا الان، كما التبس علينا معنى الوطن.

المكان الثانى هو مكتبة جامعة القاهرة. لا أدرى ماذا جرى للمكان الآن. ولكنه كان مهيبا ، هادئا ، خشبى الجدران نظيفا وهناك قرأت اغلب ما أعرف ، من الصباح حتى الغروب الذى ينزل على حدائق الجامعة «والأورمان» حيث الأشجار العريقة والنخيل السلطانى إلى جوارها يقع بوفيه كلية الاداب «٥٧-٦٠» حيث كان يلتقى كل ما فى البلد من أفكار وتيارات سياسية وثقافية وفنية.

المكان الآخر الفريد فى ذلك الوقت كان «شقة الدقى» شقة غالب هلسا ، الصديق والمعلم الاردنى . شقة غالب هى الأخرى مكان فريد دائم الحضور فى ذهنى. شقة صغيرة بسيطة، تقع فى دور مسحور فى عمارة تطل على ميدان الدقى، وغالب صديق وأستاذ ، وهو فى نظرى حتى الآن واحد من أهم أصحاب التجارب فى الكتابة الروائية قيمة بعد نجيب محفوظ . تدارست معه كتابة القصة القصيرة، وأقول تدارست لأن واحدة من أهم خصائصه أنه كان يسمع ويسأل ويعلم عن نفس الطريق . هو كان يكتب باستمرار وهو يعيش وهو يأكل وهو يتكلم ، كاتب لايشغله شيء آخر.

كنا نلتقى كل يوم . أما كل أسبوع فكان يحدث اجتماع لمجموعة من الأصدقاء الكتاب. تكون لى فى هذا الاجتماع مايمكن أن اسميه «الضمير الأدبى والاجتماعى» كانوا مع حفظ المكانة والألقاب: إبراهيم منصور ، محيى الدين محمد ، سليمان فياض، بهاء طاهر ، عبدالمحسن بدر، أبو المعاطى ابو النجا، رجاء النقاش، محمد

البساطى، فاروق شوشة. من كل منهم تعلمت ، ومعهم جميعا تكون الذوق والضمير الادبى .مع إبراهيم منصور خاصة تعلمت الترجمة واشتغلنا لشهور فى ترجمة نص بديع لهيمنجواى هو قصة «التلال كفيلة بيضاء» تعلمت من يومها أن الترجمة رغم الدقة والأمانة.. إبداع جديد.

★★

محظوظ أنا جدا . لم تؤهلنى درجات ليسانس الحقوق لأن التحق بسلك النيابة «الفارق كما يقال دائما نصف درجة» لكننى دخلت إلى بلاط صاحبة الجلالة. دخلت إلى مجلة صباح الخير ، عندما كان يرأس تحريرها ساحر الشطرنج والرواية فتحى غانم «صديق شقيقى بدر الديب» كنت قد كتبت قصة أو قصتين لم يقرأهما أحد سوى صديقى فاروق الشريف ، ولكن الكاتب الكبير عاملنى كأننى شخص مهم . كتبت بابا صغيرا متناثرا فى صفحات المجلة تحت عنوان «جديد» أقدم فيه كتبا وتجارب فنية آخذها من المجلات الأجنبية .وكتبت جرائم من الصعيد فى صورة شعر وقصص قصيرة، ورسم لى الفنان جمال كامل موضوعا عن قطار الصعيد ، وموضوعا عن الألغام فى الصحراء الغربية «رسمه الفنان آدم حنين» . دخلت إلى عالم مخصوص من الصحافة يقدر الفن ، ويفهم الأدب كانت الصحافة المصرية بعد التأميم تصارع لكى تبقى بعض تقاليد المهنة وسط تيارات الانتهازية والسطحية .. وما هو أنكى .. ولأننى محظوظ ، ومختلف الطموح فقد وجدت مكانا منعزلا اكتب فيه تحت عنوان «عصير الكتب» أقترح كتبا للقراءة واعلق عليها بكلمة أوكلمتين. ومع ذلك فقد طردتنى الحكومة من العمل فى بلاط صاحبة الجلالة مرتين بلا اتهام ولا إدانة ولا حقوق أو تعويض .كانت هزيمة يونيو قد علمتنى بشكل واضح الفرق بين

الأنظمة والأوطان وجاءت تجارب الطرد والإعادة ، بلا سبب وبلا اعتذار لكى تعلمنى أن المؤسسات عندنا تفقد معناها وتقاليدها ولايبقى منها إلا الاسم والشكل الخارجى.

حاولت فى هذه الأثناء أن أبحث عن عمل فى بلاد الخليج . وحصلت على عقد متواضع جدا، وعلى تأشيرة دخول مكتوب عليها .. صالح للعمل فى كل الأجواء.وبعد شهرين بالتمام والكمال وجدت على مكتبى خطاب استغناء عن خدماتى لمصلحة العمل والمصلحة العامة. وعدت من مغامرتى الخليجية مدينا ،عرفت فيما بعد أن زميلا صحفيا قال لصاحب المال إننى من الشيوعين الخطرين على الأمن،

وبذلك فشلت أول وآخر محاولاتى لتحقيق بعض الاستقلال المادى أو تكوين «خميرة» مالية فى أى بنك تعفينى من الرحلة الأزلية الأبدية بين أول الشهر وآخره . شيئا فشيئا تسرب إلى داخلى يقين بأننا نعمل عند الحكومة ، ولاداعى لادعاءات المثقفين وحرية الأفكار.

حاولت أن أعبر عن هذه التجربة وماأحاط بها فى كتاب مر أسميته «وقفة قبل المنحدر» . ولكن بقيت تجربة الأيام الستين رحلتى فى الغربة كابوسا إنسانيا وفنيا ، ليس لأنها شىء فى ذاته ولكن لأنها فتحت لى مغاليق الظاهرة الرهيبة التى يعيشها ملايين المصريين الباحثين عن الرزق والمال،متنقلين فى انحاء العالم العربى بين المدن والبوادى ، متحملين أنواعا غريبة من المعاملة والتعامل مما يصنع ملاحم فى العذاب والتصادم والكذب . وجميعنا يبقى كلمة العرب والعروبة كيانا آخر يفقد معناه ، ويزداد مستقبله غموضا وارتباكا . نكذب ولانرى ماذا صارت تعنى .نكذب ولانتحدث بصراحة، نكذب ونقول إن كل شىء على مايرام.

★ ★

لا أدرى لماذا تظل الكتابة رغم كل هذا الوقت ، صعبة ، وحالة نادرة ؟ كنت أقول لنفسى إنها تحتاج إلى طهارة ووضوء، وأحيانا أقول إنها فى حاجة إلى وقاحة وقسوة . اليقين الوحيد الذى يتأكد يوما بعد يوما: أن الكتابة .. الكتابة أمر بطبيعته نادر الحدوث . الحبر المسكوب والكلام المرسل ليس كتابة. الكتابة إضافة وخلق شيء جديد ..الشيء الذى اقوله فيما يشبه اليقين أنك تستطيع عن طريق «الكتابة - الفن» ان تمسك بأشياء وأفكار أجمل واكثر خيرا وقيمة من الأشياء التى يمكن أن تصل إليها عن طريق العلم أو الفلسفة . فى الفن الذى يتحقق عن طريق الكتابة.. حقيقة اكبر وفيه اتصال .

اخترت شكل الرواية القصيرة لكى أحاول الكتابة فيه.

أحب أن أقف عند كلمة «شكل» فهى من الكلمات التى فقدت بالنسبة لى معناها. كان من قبل مهماً جدا . وكان يمكن التفكير فيه بشكل مستقل. أو البحث عنه، وتعمد القصد إليه.

فقد الآن معناه ، وتجردت الكتابة . فعل، وحالة ، ولون ونغم . لذلك أقول «الكتابة ..الكتابة» . فى كتاب صغير للكاتب «التشيكى الفرنسى العالمى» كونديرا : اسمه فن الرواية دراسة قريبة إلى قلبى وعقلى عن تاريخ الشكل الروائى، ومعنى الجنس الروائى . وفى قدرة الكاتب الأمريكى هنرى ميلر، الذى يوغل فى وصف الجنس ويستعمل الالفاظ الصريحة لأعضاء الجنس بلاغة عالية وقدرة على تخليص الكتابة من ملايين المخاوف والمحاذير ، وتحليق بها فى عالم أكمل واقعية من الواقع الظاهر . وفى كتابة عبقرى السينما السويدى أنجمار برجمان للروايات وسيناريوهات افلامه التى تعتبر اعمالا أدبية قدرة الاقتصاد والدقة تبلغ حد الإعجاز.

نعم الكتابة .. الكتابة صعبة ونادرة . لو سألتنى ماذا تريد من الكتابة الآن لقلت لك: أريد أن أمسك بلون السماء الزرقاء. أن أنقل تقلب السحاب الأبيض فيها. سابحا فى الزرقة والامتداد أن اكتب ظل أوراق الشجر على الجدران يرسمها ضوء قمر. أقول : أما قرأت سورة الرحمن!

★★

اذا كنت تعرف ان الفلسفة ثلاثة علوم : علم الوجود، وعلم المعرفة وعلم الأخلاق فلابد أنك تعرف أن فلسفة الوجود أدخل إلى الدين ، وأن فلسفة المعرفة صارت إلى العلم ، ويبقى لنا علم الأخلاق : مميزا محيرا ومتغيرا . ملغزا مثل الانسان . كأنه الهواء موجود فى أدق تصرف وأصغر اشارة . ومن أصيب مثلى بداء المراقبة ومحاسبة النفس فإنه يجد نفسه غارقا صباح مساء فيه وفى مشاكله . اذا كانت الأيديولوجيات قد سقطت جميعا. وسيطرت البرجماتية ،الفلسفة النفعية الوحيدة المعتمدة فى أمريكا، على العالم كله، وصنعت لها من الارهاب والتطرف عدوا تحاربه . فهل سقطت ايضا كل المعانى المطلقة . هل سقط العدل والخير والحق والجمال؟

فى رحاب فلسفة الأخلاق، تاريخها وتطورها، أجد السلوى والملاذ.

وأخيرا .. اسمح لى أن أقول إن كل ما أريده فى النهاية أن أكون رجلا صالحا بجد ، وأن أشن حربى الخاصة التى لا هوادة فيها ضد : الكذب والنفاق أبشع خصائص الطبقة المتوسطة.

رقم الإيداع
٢٠٠٢/١٦١٦
I.S.B.N
977- O7- 0941-7
